

﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا
وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ
مُسْتَقَرٌّ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝
حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ التُّنْدُرُ ۝ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ
إِلَى شَيْءٍ تُكْرِهُونَ ۝ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ
كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ۝ مَهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ
هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝﴾ [القمر: 1 - 8]

✽ مناسبة مَطْلَعِ السُّورَةِ لِخِتَامِ مَا قَبْلَهَا:

افتتحت سورة القمر بقوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، وهذه الآية على وجهٍ بليغٍ تناسب ختام السورة السابقة، سورة النجم، التي جاء فيها قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ الْأَزِفَةُ ۖ﴾؛ أي: دنت القيامة واقترب وقوعها، فأعيد التذكير باقتراب الساعة، لكن في هذه المرة قرن القول بالدليل الحسي، فدل على صدق ذلك بوقوع آية عظيمة، وهي انشقاق القمر، والمعنى: لقد أخبرناكم بأن الساعة قد أزفت، وها هو القمر قد انشق فعلاً، تأييداً لهذا القول، وتصديقاً لوقوعها. فجاءت سورة القمر تأكيداً لما ختمت به سورة النجم، مع تعزيز الخبر بالحجة المرئية التي عاينها الناس، مما يزيد من وقع الإنذار وبلاغته⁽¹⁾.

✽ مناسبة الآيات فيما بينها:

لما أعرض الكفار عن آية انشقاق القمر، ناسب ذكر سبب الإعراض، وهو العناد والتكذيب واتباع الأهواء، فهو انتقال من

ختام سورة
النجم بالإنذار
العام، ومطلع
سورة القمر
بالإنذار الحسي
الخاص

إعراض الكافرين
سلوك راسخ لا
يزول بالبراهين
بل بالعرض يوم
الدين

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 288 / 29.

ذِكْرُ السُّلُوكِ إِلَى بَيَانِ سَبَبِهِ، وَنَاسَبَ بَعْدَ ذَلِكَ ذِكْرُ إِقَامَةِ الْحُجَجِ الْبَاهِرَةِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَانُ إِصْرَارِهِمْ عَلَى التَّكْذِيبِ، فَمَا تَغْنِ النَّذْرُ مَعَ الْمُعَانِدِينَ، وَنَاسَبَ الْإِنْتِقَالَ إِلَى بَيَانِ الْمَوْقِفِ مِنْهُمْ، وَهُوَ التَّوَلَّى عَنْهُمْ، فَإِنَّ مَا لَهُمْ إِلَى الْقِيَامَةِ، يَأْتُونَ خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ، وَيُخْرِجُونَ مِنْ أَجْدَانِهِمْ إِلَى مُصِيرِهِمُ الْمَحْتَمِ.

❖ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾: أصل (مَرَّ) يَدُلُّ عَلَى مُضِيِّ شَيْءٍ، يُقَالُ: مَرَّ الشَّيْءُ يَمُرُّ، إِذَا مَضَى⁽¹⁾. وَوَصَفُ ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾ هُنَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْتًا مِنْ فِعْلِ (مَرَّ) الَّذِي هُوَ مَجَازٌ فِي الرُّوَالِ، وَالسَّيْنِ وَالتَّاءِ لِلتَّقْوِيَةِ فِي الْفِعْلِ؛ أَي: لَا يَبْقَى الْقَمَرُ مُنْشَقًّا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَقْتًا مِنَ الْمِرَّةِ بِكَسْرِ الْمِيمِ؛ أَي: الْقُوَّةِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: قَدْ مَرَّ الْحَبْلُ: إِذَا صَلَبَ وَقَوِيَ وَاشْتَدَّ⁽²⁾. وَالسَّيْنُ وَالتَّاءُ لِلطَّلَبِ؛ أَي: طَلَبَ لِفِعْلِهِ مِرَّةً؛ أَي: قُوَّةً؛ أَي: تَمَكُّنًا. وَالْمَعْنَى: هَذَا سِحْرٌ مَعْرُوفٌ مُتَكَرِّرٌ؛ أَي: مَعَهُودٌ مِنْهُ مِثْلُهُ⁽³⁾.

(2) ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: أصل (قَرَّ) يَدُلُّ عَلَى الثُّبُوتِ وَالتَّمَكُّنِ⁽⁴⁾، يُقَالُ: قَرَّ الشَّيْءُ، يَقَرُّ قَرَارًا: إِذَا ثَبَتَ فِي مَكَانِهِ وَلَمْ يَتَحَوَّلْ. وَقِيلَ: أَصْلُهُ مِنَ الْقَرِّ، وَهُوَ الْبَرْدُ، وَهُوَ يَقْتَضِي السُّكُونَ، وَالْحَرُّ يَقْتَضِي الْحَرَكَةَ. وَاسْتَقَرَّ فُلَانٌ: إِذَا تَحَرَّى الْقَرَارَ⁽⁵⁾. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ [البقرة: 36]؛ أَي: قَرَارٌ وَثُبُوتٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: 67]؛ أَي: غَايَةُ وَنِهَايَةُ⁽⁶⁾. وَمَعْنَى ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: مَحَلُّ اسْتِقْرَارٍ، وَالِاسْتِقْرَارُ بِمَعْنَى الْحُصُولِ؛ أَي: لِكُلِّ مُوَعِدٍ بِهِ وَقْتُ يَحْصُلُ فِيهِ⁽⁷⁾.

(3) ﴿مُزْدَجَرٌّ﴾: أصل (زَجَرَ) يَدُلُّ عَلَى الْإِنْتِهَارِ. يُقَالُ: زَجَرْتُ الْبَعِيرَ حَتَّى مَضَى، أَنْزَجَرُهُ⁽⁸⁾. وَزَجَرْتُهُ وَأَزْدَجَرْتُهُ، وَهُوَ كَالنَّهْيِ عَنِ السَّوِّ لِلْإِنْسَانِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مَرَّ).

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 304، والواحدي، التفسير البسيط: 90 / 21.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 172 / 27.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قَرَّ).

(5) الرَّاغِب، المفردات: (قَرَّ).

(6) الزَّيْدِي، تاج العروس: (قَرَّ).

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 287 / 7.

(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زَجَرَ).

مُجْنُونٌ وَأَزْدُجِرٌ، وقد يوضع الازدجار مَوْضِعَ الانزجار فيكون لازماً⁽¹⁾. فالزجر: طرد بصوت، قال تعالى: **﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾** [الصافات: 19]⁽²⁾. ومُزْدَجِرٌ: مصدرٌ ميميٌّ، وأصله مُزْتَجِرٌ، فأبدلت تاء الافتعال دالاً⁽³⁾. والمعنى: طرد ومنع عن ارتكاب المآثم والشُّرك⁽⁴⁾.

(4) **﴿النُّذْرُ﴾**: أصل (نذر) يدلُّ على تخويفٍ أو تخوُّفٍ، ومنه الإنذار: الإبلاغ؛ ولا يكادُ يَكُونُ إِلَّا فِي التَّخْوِيفِ⁽⁵⁾. والنُّذْرُ: جَمَاعَةُ النَّذِيرِ (الرُّسُلِ)، وهو الاسم من الإنذار. والتَّناذُرُ: إنذارٌ بعضهم بعضاً⁽⁶⁾. والنَّذْرُ، وهو أَنَّهُ يَخَافُ إِذَا أَخْلَفَ⁽⁷⁾. والنُّذْرُ فِي الْآيَةِ مَعْنَاهُ: مَنْ يُخَبِّرُ غَيْرَهُ بِأَمْرِ مَخُوفٍ حَتَّى يَحْذَرَهُ⁽⁸⁾. والمراد: الرُّسُلُ وما حُمِّلُوا بِهِ مِنْ بَلَاغَاتِ النَّذِيرِ وَالتَّحْذِيرِ⁽⁹⁾.

(5) **﴿نُكْرٍ﴾**: أصل (نكر) يدلُّ على خِلَافِ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي يَسْكُنُ إِلَيْهَا الْقَلْبُ⁽¹⁰⁾. يُقَالُ: نَكَرَ الشَّيْءَ وَأَنكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ وَلَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ لِسَانُهُ. وَالْبَابُ كُلُّهُ رَاجِعٌ إِلَى هَذَا. فَالنُّكْرُ: الدَّهْيُ، وَالنَّكَرَاءُ: الْأَمْرُ الصَّعْبُ الشَّدِيدُ، وَنَكَرَ الْأَمْرُ نَكَارَةً⁽¹¹⁾، وَ(نُكْرٌ) مَعْنَاهُ مُنْكَرٌ، وَهُوَ الَّذِي تَأْبَاهُ النَّفْسُ مِنْ جِهَةِ نَفُورِ الطَّبْعِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا مِثْلَهُ قَطُّ؛ فَيَنْكَرُونَهُ اسْتِعْظَامًا لَهُ، وَهُوَ صِفَةٌ عَلَى (فُعْلٍ)، مِثْلُ: جُنُبٌ، وَجُزْرٌ، وَأُحُدٌ، وَيَجُوزُ فِيهِ التَّخْفِيفُ، وَإِنَّمَا وُصِفَ بِأَنَّهُ **﴿نُكْرٍ﴾** لِفُغْلَظِهِ عَلَى النَّفْسِ⁽¹²⁾.

(6) **﴿خُشَعًا﴾**: أصل (خشع) يدلُّ على التَّطَامُنِ. يُقَالُ: خَشَعَ، إِذَا تَطَامَنَ وَطَاطَأَ رَأْسَهُ، يَخْشَعُ خُشُوعًا⁽¹³⁾. وَالْخُشُوعُ: السُّكُونُ وَالتَّذَلُّلُ، يُقَالُ: خَشَعَ فِي صَلَاتِهِ: إِذَا أَقْبَلَ بِقَلْبِهِ عَلَى

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: 318 / 10، والواحدي، التفسير البسيط: 92 / 21.

(2) الزاغبي، المفردات: (زجر)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 431.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 98 / 14.

(4) الزاغبي، المفردات: (زجر)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 431.

(5) ابن فارس، معاني اللغة: (خوف).

(6) ابن فارس، معاني اللغة: (خوف).

(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (نذر).

(8) طنطاوي، التفسير الوسيط: 137 / 7.

(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 556 / 6.

(10) ابن فارس، معاني اللغة: (نكر).

(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 157 / 13.

(12) الواحدي، التفسير البسيط: 95 / 21.

(13) ابن فارس، معاني اللغة: (خشع).

ذلك، مأخوذٌ من حَشَعَتِ الأرضُ: إذا سَكَنتْ واطمَأَنَّتْ، وحَشَعَ بَصَرُهُ: أي: رَمَى بَبَصَرِهِ نحو الأرض، وخَفَضَ صَوْتَهُ. واختَشَعَ: إذا طَاطَأَ صَدْرَهُ وتَوَاضَعَ⁽¹⁾. ووُصِفَتِ الأبصارُ بالخُسُوعِ؛ لأنَّ ذِلَّةَ الدَّلِيلِ وعِزَّةَ العَزِيزِ تَتَبَيَّنُ في نظره، كما قال عَزَّ ذِكْرُهُ: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرَفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: 45]⁽²⁾. والمعنى: ما يبدو عليهم من أثر المدلَّة والمخافة يوم القيامة⁽³⁾.

(7) ﴿الْأَجْدَاثِ﴾: (جَدَث) أصلٌ واحدٌ وهو القَبْرُ، والقَبْرُ: حَفِيرٌ يُجْعَلُ لمَوَارَاةِ المَيِّتِ. وجمَعُهُ: أَجْدَتْ وَأَجْدَاثٌ⁽⁴⁾. وتَبَدَّلَ ثَاوُهُ فَاءً، فَيُقَالُ: جَدَفَ وَأَجْدَافَ، نحو: ثَوْمٌ وَفَوْمٌ⁽⁵⁾.

(8) ﴿مُهْطِعِينَ﴾: أصل (هَطَعَ) يَدُلُّ على إِقْبَالٍ على الشَّيْءِ وانْقِيَادٍ⁽⁶⁾. يُقَالُ: هَطَعَ الرَّجُلُ: إذا أَقْبَلَ بَبَصَرِهِ على الشَّيْءِ لَا يُقْلِعُ عنه، يَهْطَعُ هُطُوعًا⁽⁷⁾، وَلَا يكون ذلك إِلَّا مَعَ خَوْفٍ⁽⁸⁾. والإِهْطَاعُ: الإسْرَاعُ في العَدُوِّ. وأَهْطَعَ البَعِيرُ: صَوَّبَ عُنُقَهُ مُنْقَادًا. وأَهْطَعَ: أَسْرَعَ⁽⁹⁾. ومعنى المُهْطِعِ: الماشي سريعا مادًّا عُنُقَهُ، وهي مِشْيَةٌ مذعورٍ غير مُلْتَفِتٍ إلى شيءٍ.

(9) ﴿عَسِرٌ﴾: أصل (عَسِر) يَدُلُّ على صُعُوبَةٍ وَشِدَّةٍ⁽¹⁰⁾. ومنه العُسْرُ: نَقِيزُ اليُسْرِ، وهو الضِّيقُ والشَّدَّةُ والصُّعُوبَةُ⁽¹¹⁾. والعُسْرَةُ: قِلَّةُ ذَاتِ اليَدِ. وكذلك الإِعْسَارُ. والعُسْرَى: الأمورُ الَّتِي تَعْسُرُ وَلَا تَتَيْسَّرُ، والْيُسْرَى: ما اسْتَيْسَرَ مِنْهَا⁽¹²⁾. وقد عَسَرَ الأمرُ يَعْسُرُ عَسْرًا، فهو عَسِرٌ، وَعَسْرٌ يَعْسُرُ عُسْرًا، وَعَسَارَةٌ، فهو عَسِيرٌ⁽¹³⁾. والمعنى: صِفَةُ مُشَبَّهَةٍ مِنَ العُسْرِ، وهو الشَّدَّةُ والصُّعُوبَةُ⁽¹⁴⁾.

(1) الخليل، العين، والأزهرى، تهذيب اللغة، والجوهري، الضاح، وابن منظور، لسان العرب: (خشع).

(2) الواحدى، التفسير البسيط: 96 / 21.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 127 / 25.

(4) الجوهري، الضاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جدث).

(5) السمين الحلي، عمدة الحفاظ: (جدث).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هطع).

(7) الجوهري، الضاح: (هطع).

(8) ابن دريد، جمهرة اللغة: (هطع).

(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (هطع).

(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عسر).

(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عسر).

(12) الأزهرى، تهذيب اللغة: (عسر).

(13) ابن منظور، لسان العرب: (عسر).

(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 178 / 27.

❖ المعنى الإجمالي:

تُخبرُ الآياتُ الكريمة أنَّ قيام الساعة قد اقترب، وأنَّ من دلائل اقترابها انشقاق القمر، وقد وقع ذلك في مكَّة حين طلبت قريشُ مُعجزة، فانشقَّ القمر نصفين، فرأوه رأيَ العين، ومع ذلك أعرضوا وقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾؛ أي: سحرٌ متواصل قوي. لم يكن إنكارهم عن عقل أو برهان، بل كان اتِّباعاً للهوى وتكذيباً للحق. ومع ذلك فقد جاءهم من أخبار الأمم السابقة في القرآن ما يكفي للردِّع والاعتاظ، وفيه من الحكمة البالغة ما يكشف العاقبة، ويبيِّن طريق الهلاك والنَّجاة، لكنَّهم لم ينتفعوا بالإنذار. فكان توجيهُ الله لنبيِّه أن يُعرضَ عنهم، فإنَّما ينتظرون ما قضاه الله فيهم. ثمَّ صوِّرَ مشهدَ البعث: حين يُدعى النَّاسُ إلى المَوْقفِ المهول، وتخشعُ أبصارُهم، ويخرجون من القبور كأنَّهم جرَّادٌ مُنتشر، مُسرِّعين إلى النِّداء للحساب. هناك يقول الكافرون: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾، وهو كذلك عسيرٌ على مَنْ كَذَّبَ وأعرض، لكنَّه على المؤمنين يسير⁽¹⁾.

تمادي المُكذِّبين
رغم اقتراب
القيامة ووضوح
الآيات

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

بلاغة صيغة (الافتعال) ودلالاتها:

دلَّ فعل ﴿أَقْتَرَبْتَ﴾ على معنى: (قُرُبْتَ)، لكنَّ النظم الكريم آثر استعمالَ هذه الصيغة دون (قربت)؛ ليدلَّ على شدَّة الاقتراب⁽²⁾، والاقتراب أصله صيغة مُطاوَعَة؛ أي: قَبُولُ فِعْلِ الفاعل، وهو هنا للمبالغة في القُرب⁽³⁾؛ أي: تحقَّق الاقتراب وتأكَّد، ولم يبق إلا وقوعُ الساعة، وفي التأكيد معنى الرَّدِّ على المنكرين ووقوعُ الساعة، فكانه قيل: إن أنكرتم وقوعها فقد اقتربت، والاقتراب مُتحقِّق الوقوع، مُتأكَّد المجيء.

تأكيد اقتراب
القيامة ردُّ
على المُعتقِد
البليد، وتحقيق
للمعنى التليد

(1) الجزائري، أيسر التفاسير: 206 / 5.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 87 / 19، وابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 261.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 170 / 27.

دلالة فعل الاقتراب بين الحقيقة والمجاز:

تقريبُ أمر
السَّاعة ومباغتهُ
المَجيء حاصلُ
الأمرِ ومقصودُ
الخير

اقتراب السَّاعة في قوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ يحتمل أن يُحملَ على حقيقته، فهو قَرُبٌ نسبيٌّ مقارنةً بعُمُرِ الكونِ الطَّويل منذ أن خلقه الله، فالمدَّةُ المتبقية حتى قيام السَّاعة قصيرةٌ نسبيًّا إذا ما قيسَت بالزَّمن الطَّويل الذي مضى، ويُؤيِّده تشبيه النَّبيِّ ﷺ بين بعثته وقيام السَّاعة بإصبعيه السَّبابة والوسطى حين قال: «بُعِثْتُ أنا والسَّاعةُ كهاتين»⁽¹⁾، كما قال القرطبيُّ في معنى الحديث: "وحاصله: تقريبُ أمرِ السَّاعة التي هي القيامةُ، وسرعةُ مجيئها"⁽²⁾. ويحتمل أن يُحملَ على معنى مجازيٍّ؛ أي: "الدَّلالة على الإمكان، فالمعنى: اتَّضح للنَّاس ما كانوا يجدونه مُحالًا من فناء العالم، فإنَّ لحصول المثل والنَّظائر إقتناعًا بإمكان أمثالها التي هي أقوى منها"⁽³⁾، فاقترابها هو إثباتٌ لإمكانية حدوثها.

معنى تعريف لفظ ﴿السَّاعَةُ﴾:

تذكير العقول
بأنَّ السَّاعة
يقينٌ حاضر في
الوجودان، لا
وهمٌ غائب في
الخيال

تعريف لفظ ﴿السَّاعَةُ﴾ للعهد الدَّهنيِّ، وليست للجنس أو للتَّعريف العام؛ وذلك لأنَّ (السَّاعة) عُلِّمَ بالغَلَبَةِ في نصوص القرآن الكريم، فهي تُطلَقُ على معلوم ومعهود في أذهان المُخاطَبين، فالاستعمال السَّابق للكلمة في الخطاب القرآنيَّ جعلها عهدًا ذهنيًّا، فجاءت (أل) لتعريف هذا المفهوم المعهود⁽⁴⁾.

بلادة انتقاء لفظ ﴿السَّاعَةُ﴾:

مجيء القيامة
سريعٌ لا يُمهَل
وأكدٌ لا يُهمَل

سُمِّيت القيامةُ بالسَّاعة؛ "السَّريعةُ الأمر فيها، أو لمجيئها في ساعةٍ من يومها"⁽⁵⁾، وهذا تعليلٌ عامٌّ يصلح لهذا السِّياق وغيره، ونُكتة اختيار لفظ السَّاعة دون القيامة وغيرها من الصِّفات الدَّالة على

(1) أخرجه البخاريُّ في صحيحه، برقم: (4652).

(2) القرطبيُّ، الفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مُسلم: 305 / 7.

(3) ابن عاشور، التَّحْريزُ والتَّنْوير: 170 / 27.

(4) ابن عاشور، التَّحْريزُ والتَّنْوير: 171 / 27.

(5) اللاوردي، التَّكت والعيون: 408 / 5.

ذلك اليوم المهول، هو ذكر لفظ الاقتراب الدال على سرعة الوقت؛ لأن ما يشتد قُربُه يَسْرُعُ مجيئُه، فاصطفى تعالى لفظاً يدل على تلك السرعة، كما أن الساعة هي في حقيقتها لوقت قصير يكون بوقوعه وقوع حَدَثٍ مُنتَظَرٍ، فلما كان سياق السورة ذاكرة البعث، وأحداث الأمم الماضية، وما جرى لهم من عقوبات ماحقة، ناسب ذكر الساعة؛ لأنها ساعة خاطفة سريعة في عمر الزمن. مع التلميح إلى معنى المباغته، فهي ليست كعادة الأمور في الدنيا التي تأخذ وقتاً، فإذا جاءت قامت فجأة، وانتَهتِ الحسابات والمصائر بسرعة، وفي هذا إشارة إلى الدهشة، والمباغته، وسرعة الحسم. والساعة ستجيء في لحظة خاطفة غير مُحدَّدة.

בלغة الإسناد المجازي وفائدته:

إسناد فعل الاقتراب إلى الساعة في قوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ مجازي، فالساعة لا تقترب بذاتها، بل وقتها هو الذي يقترب، واقتربَ زمانها هو بفعل الله تعالى وحده، فهو الذي يُسير الأزمان والأحداث، وهو الذي يتصرف في ملكوته. وفائدة الإسناد: الإيماء إلى قرب الوقوع، وسرعة الحدث، وشدة الموقف، فما يشتد قُربُه، تشتد مباغتته، وتعظم آثاره.

בלغة عطف الانشاق على الاقتراب، ومناسبته:

عطف قوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ على قوله: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ من باب عطف الدليل على مدلوله، والوسيلة على غايتها، فانشقاق القمر هو دليل اقتراب الساعة، وتظهر المناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه في أن الله جمع بين أمرين عظيمين؛ أحدهما: غيبي (اقتراب الساعة)، والآخر: شهودي (انشقاق القمر)؛ ليكون الثاني دليلاً على الأول، فحصل التأكيد على تلازمهما بالجمع بينهما،

الإيماء إلى قرب
الوقوع وشدة
الحدث

عطف الأدلة على
غاياتها إقناع
عقلي وتسلسل
بدهي

كما تقول: أقبل الأمير، وقد جاء المُبشِّرُ بقدمه⁽¹⁾. ويحتمل أن يكون العطف من عطف الحدث على الحدث، وعليه يكون الإخبار عن الاقتراب مُرادًا به المعنى الحقيقي، أي: أوشكت على الوقوع، فيكون العطف لعطف ما تحقق وجوده عيانًا على ما تحقق قربُه غيبًا، فكلاهما مُتحقق. وعطف الانشقاق على الاقتراب دون العكس؛ لأنَّ الاقتراب أوضح في العقل الصريح من الانشقاق الذي جاء به الخبر الصحيح، وبه يندفع قول ابن كيسان بأنَّ العطف مَحْمُولٌ "على التقديم والتأخير"⁽²⁾؛ وذلك لأنَّ الترتيب في الوقوع؛ أي: ترتيب وقوع الانشقاق على وقوع الاقتراب.

ومناسبة عطف الانشقاق على الاقتراب: هو تقرير نفاذ القدرة الإلهية على أسرع الوجوه وأتمّها، فكما انشقَّ القمر فَلَقتين فجأةً من غير تمهيدٍ ولا تنبؤ، فكذلك الساعة ستأتيكم سِرَاعًا فجأةً من حيث لا تحسبون.

بلغة المجاز الإسنادي:

أُسند فعل الانشقاق في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ مجازًا إلى القمر، فالقمر هو الذي وقع عليه الفعل، وليس هو الفاعل، فالفاعل الحقيقي هو الله تعالى، وهذه عادة العرب في إسناد الفعل إلى ما وقع عليه من الجمادات، كما يقولون: سقط الحجر، وانكسر الزجاج، وذلك لتصوير المتحدث عنه كأنما صدر الفعل عنه لقوته، ومكنة الفعل فيه.

دلالة التعبير بفعل الانشقاق مادةً وصيغةً:

دلَّ فعل الانشقاق في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ على حدوث فرَجٍ أو تصدُّعٍ في جسمٍ ما، دون انفصال تامٍّ، مثل الشقِّ في الجدار

قوَّة الفعل
ومُكنَّته هي نُكْتة
إسناد الفعل
لغير فاعله

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 431.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 171/ 27.

انشقاق القمر
برهان محسوس
يقطع الشك،
ويثبت حقيقة
البعث

أو الخشبة، وهذا يطابق وصف ما حدث للقمر؛ فهو لم يحطم أو يتناثر، بل حدث فيه صدع أو انقسام، فجاءت المفردة مطابقة للواقع، ودلت الصيغة الصرفية (انشق) التي هي مطاوع (شقّه)، إذ يقال: (شق الشيء فانشق)، فقلوه: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ يدل على وقوع الفعل بفعل فاعل آخر، وليس من ذاته، فهي تفيد أن انشقاق القمر حصل له بفعل الله تعالى وقدرته، مما يؤكد أنه معجزة إلهية مقصودة لإدراك تكليفي إيماني، وهو وقوع اليوم الآخر⁽¹⁾. كما أن ورود فعل الانشقاق بصيغة الماضي مراد به الحقيقة لا المجاز؛ فهو يدل على تحقق وقوع الحدث بالفعل، وانتهائه بشكل قطعي لا شك فيه. فهي تخبر عن حقيقة واقعة قد حدثت بالفعل، وشاهدها الناس، ونقلتها الأخبار.

معنى تعريف لفظ ﴿الْقَمَرُ﴾:

تعريف ﴿الْقَمَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ للعهد الذهني؛ فالمقصود هو القمر المعهود، والمعروف لدى مخاطبين، وهو قمرهم الذي يرونه في السماء، وليس أي قمر آخر، فالكلمة تحدد الجرم السماوي المعين الذي حدث فيه الأمر الخارق، وبه فلا يقبل لفظ ﴿الْقَمَرُ﴾ التأويل، بتنزيله على جرم سماوي آخر، سواء من باب الخرص، أم بوساطة التخمينات النظرية الفلكية المستجدة.

انشقاق القمر
المعهود لا يقبل
التأويل على
جرم سماوي
آخر

لفظ الانشقاق بين الحقيقة والمجاز:

الانشقاق في قوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾: له ثلاثة احتمالات؛ الأصل الحقيقي: وهو حدوث شرخ أو صدع في سطح القمر؛ أي: تكونت هوة أو فجوة فيه. ويحتمل أن يكون استعارة: إذا حجب أو انطفأ جزء من ضوء القمر؛ أي: انمحت إضاءة جزء منه؛ فاستعير لفظ الانشقاق الذي يصف انفراج جسم صلب، لوصف انطماس الضوء

الانشقاق
تحقق في أصله
اللغوي، وفي
نتيجته الماثورة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 170 / 27.

وزواله، والاستعارة تصرّحيةً تبعيّة، والجامع بين المُشَبَّه والمُشَبَّه به هو حدوث انقسام أو تفرّق في شيءٍ كان مُتَّصلاً ومُتجانساً، سواءً كان هذا الشيء مادّياً كالقمر، أم غير مادّي كضوئه. ويحتمل أن يكون مجازاً مُرسلاً إذا انقسم القمر إلى قسمين مُنفصلين، فأُطلق لفظ الانشقاق، وهو السبب والحدّث الحقيقي، على نتيجته، وهي انفصال القمر إلى قسمين. والعلاقة سببيّة: لأنّ الانشقاق هو سبب التفرّق⁽¹⁾.

والاحتمال الأوّل والثالث لا تتأفّر بينهما، إذ وقوع الانشقاق حقيقةً، وهو سبب الانفصال، فيكون قد أُطلق اللفظ الذي هو السبب، وهو مرادّ في بداية الأمر، وأراد نتيجته وهو الانفصال، فإنّ كلّ انفصال يبدأ انشقاقاً. وأمّا القول بالاستعارة فتأويلٌ بعيدٌ لا يوافق ظاهر اللفظ، وما استقرّ لدى جمهور العلماء والمفسّرين.

فنّ بديع الإدماج:

الإخبار بقوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرُ﴾ ليس مُجرّد إخبارٍ بحادثة تاريخيّة وقعت، بل هي موعظةٌ مُدمجةٌ في سياق الخبر، فالغاية من ذكر انشقاق القمر بعد الإخبار باقتراب الساعة لا يقتصر على سرد الواقعة، بل التذكير والتحذير بأنّ هذا الانشقاق هو تصوّر تقريبيٌّ لأحدِ علامات قيام الساعة، ممّا يدعو النَّاسَ إلى الاستعداد ليوم القيامة، والتفكّر في هذه العلامات، والاعتبار والاتعاظ بقرب الآخرة. والإدماج: هو إدخالُ غرضٍ في سياقٍ ليس له، بقصد تحقيق الفائدة، وهو لونٌ من الإطناب البليغ، وهنا هو إدخالُ معنى الموعظة والتذكير في الإخبار عن الحادثة⁽²⁾.

نوع الواو ودلالاتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً﴾ تحتمل أن تكون عاطفةً،

إدماج الموعظة
والتذكير في
سياق الخبر
إطنابٌ بليغٌ
وإفادةٌ بديعةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 170 / 27.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 171 / 27.

والجملة بعدها تذييلٌ للآية السابقة، فقولُه: ﴿عَايَةً﴾ يُشيرُ إلى معجزة انشقاق القمر التي رآها المُشركون وكذبوا بها، وتحتمل أن تكون استئنافية؛ لإفادة عموم مَوْقِفِ المُشركين من جميع الآيات الحسبيّة المُشاهدة، فالجملة مُستقلّة؛ لبيان حال المُشركين عمومًا، وأنَّ أيَّ آية يَرونها يُعرضون عنها، ويُكذبونها، ويَصِفونها بالسَّحر⁽¹⁾.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِ(إِنْ) دُونَ (إِذَا):

آثر النّظم الكريم استعمال أداة (إِنْ) دُونَ (إِذَا)، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾، و(إِنْ) تُفيد الشرطَ مع مَظَنَّة الوقوع، بخلاف (إِذَا) فهي قطعِيَّة الوقوع، وذلك في غالب الاستعمال، ونُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بها أنَّ رُؤية الآيات ليس أمرًا يقينيًّا، بل هو ظنِّيٌّ، كأنه قال: إِنْ رَأَوْا آيَةً أَعْرَضُوا، فكيف في عدم رؤيتهم؟ فَمَظَنَّة الوقوع هو لرؤية الآيات لا للإعراض، إذ الإعراض مُتَحَقِّق الوقوع منهم، وذلك أنَّ رُؤية الآيات الخارقة ليس مُرادًا شرعًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 37].

نوع الرُّؤية ودلائلها:

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾ هي رؤية حسيّة لا علميّة، فيدلُّ الفعلُ على الإدراك الحسبيّ بالعين، ولذلك تعدّت إلى مفعول واحد، وذلك يُمَوِّ رُؤية المُشركين لآية انشقاق القمر رؤية عينٍ، وينفي السَّماعَ أو التَّخمين في إدراكهم للأمر، ويقوِّي حجة القرآن عليهم، فهم لم يُكْذِبُوا شيئًا غيبِيًّا، بل شاهدوه بأعينهم، قال الزَّمَخْشَرِيُّ: "وعن بعض النَّاس: أنَّ معناه ينشقُّ يوم القيامة، وقولُه: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ يَرُدُّه، وكفى

مَنْ كَذَّبَ بِآيَةٍ
فكَأَنَّمَا كَذَّبَ
بِالْآيَاتِ جَمِيعًا

مَظَنَّةُ رُؤية
الآيَاتِ الكونية،
ليس مَظَنَّة
لِلإِيمَانِ بِالْآيَاتِ
القرآنيّة

الرُّؤية دليلٌ على
انشقاق القمر،
وكثيرٌ مِنَ النَّاسِ
رآه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27 / 171.

به راداً⁽¹⁾، وهذا احتجاج قوي بالآية على أن الرؤية حسية واقعة في الدنيا.

دلالة الفعل المضارع:

دلَّ الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَأَن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ على التَّجَدُّدِ الْمُسْتَقْبَلِيِّ لِأَنَّ (إِنْ) تدلُّ على الاستقبال؛ أي: إِنَّ يَرَوْا في المُسْتَقْبَلِ آيَةً تَلُو أَخْتِهَا فَهُمْ مُعْرَضُونَ.

نكتة تنكير لفظ ﴿آيَةً﴾:

نُكِّرَ لَفْظُ ﴿آيَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ في سياق الشرط للعموم، فيعمُّ المعنى كلَّ آيةٍ خارقة، من شأن رائيها أن يقبل مؤمناً، ويدخل فيها دُخُولاً أَوَّلِيّاً آيةً انشقاق القمر بطريق الأولى لا بطريق النصِّ اللفظي، وبه يعمل الرايان⁽²⁾ سوياً في الآية؛ أي: الرَّأْيُ الْقَائِلُ بِإِرَادَةِ كُلِّ آيَةٍ، والرَّأْيُ الْقَائِلُ بِإِرَادَةِ آيَةِ انشقاق القمر، الأوَّلُ بطريق النصِّ، والآخرُ بطريق الأولى.

بلاغة استعمال مفردة الإعراض دون الكفر:

آثر النظم الكريم التعبير بمفردة الإعراض في جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿وَأَن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ دون (يكفروا)؛ لأنَّ شأن رؤية الآيات هو الإقبال، ثُمَّ الإيمانُ لا الإعراض، فكان ذِكْرُ الإعراض تلميحاً لأثر رؤية الآيات في النَّاسِ أَصْحَابِ الْفِطْرِ السَّوِيَّةِ، وهو الإقبال، فَلَمَّا حَدَثَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الإِعْرَاضُ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى فساد فطرتهم، وسوء طويبتهم، وخراب قلوبهم، كما أنَّ ذِكْرَ الإِعْرَاضِ كُنَايَةً عَنِ الْكُفْرِ، إِذِ الإِعْرَاضُ دَلِيلُ الْكُفْرِ؛ فَدَلَّ الإِعْرَاضُ عَلَى أَنَّ رُؤْيَتَهُمْ كَانَتْ بَلَا تَحْقِيقٍ وَإِعْمَالٍ فَكَّرَ، بَلْ كَانَتْ رُؤْيَا الْمُتَهَاوِنِ السَّاخِرِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 431.

(2) اللوردي، التكت والعيون: 5/ 410.

تجدد إعراض
أهل الكفر مع
تجدد الآيات

التقريب بين
الآراء التفسيرية
أولى من الترجيح

الإعراض تصريح
بدليل الكفر
وتلميح لضده
من الإقبال على
الإيمان

بلادة استعمال مفردة الإعراض دون مقارباتها:

التعبير
بالإعراض
أنسب للغفلة
والاستهزاء

التعبير بالإعراض في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ أنسب للغفلة والاستهزاء، فالقوم لم يكتفوا بالإعراض، بل ألحقوه بالاستهزاء فقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾، فناسب أن يسبق ذلك فعل فيه معنى التغافل والتهاون، لا فعل فيه شدة ومجافاة؛ كناية أو صد، كما أنّ الإعراض أقل كلفة من غيره، فد (النأي) و (الصدود) و (البعد) تدل على فعل فيه مجهود أو نفرة أو مواجهة. أمّا هؤلاء فلم يكتفوا بأنفسهم شيئاً؛ ولم يقاوموا ولم يواجهوا، بل انصرفوا بلا مبالاة، وكأنهم لم يروا شيئاً. وهذا من أبلغ ما يُصور اللامبالاة المجرمة أمام أعظم آية كونية. فاختيار الإعراض هنا يلتئم مع جو الموقف. ولم يعبر بالانصراف؛ لأنّ الانصراف فيه معنى التحوّل والانقطاع عن الشيء بمغادرة فعلية، فهو حركة تامة بعد موقف. فلو جاء هنا: (وإن يروا آية ينصرفوا) لأوهم أنّهم وقفوا لحظة عند الآية ثم مالوا عنها، بينما المراد أنّهم لم يلتفتوا إليها أصلاً، وإنّما قابلوها بوجوه معرضة منذ البداية. فالإعراض أبلغ في تصوير حالة التغافل الفوري.

ولم يعبر بالبعد؛ لأنّ البعد في جوهره مسافة مكانية أو معنوية تفصل بين شيئين. فلو قيل: (وإن يروا آية يبتعدوا) أو (يبعدوا)، لكان المعنى: أنّهم تباعدوا عنها، وكأنّ بينهم وبينها انفصلاً في المكان أو في الاعتبار. لكنهم لم يتباعدوا، بل كانوا حاضرين يرون الآية رأي العين، غير أنّهم أداروا وجوههم عنها بلا اكتراث.

فاختيار لفظ الإعراض في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ دون النأي أو الصدود أو البعد؛ لأنّ الإعراض أقرب لما بعد رؤية الآية مباشرة، فالآية تقول: ﴿وَأَنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾؛ أي: أنّ موقفهم الأول عند مشاهدة الآية لم يكن عناداً عنيفاً (نأيًا)، ولا مجابهة متشددة (صدودًا)، بل مجرد صرف

وجوههم بلا مبالاة؛ أي: أنهم تعاملوا مع الحدث العظيم، وكأنه لا يستحق التفاتاً. وهذا أليقُ بـ(الإعراض) الذي فيه معنى الانصراف بالوجه دون استجابة، لا بالمواجهة الشديدة.

دلالة التعبير بصيغة المضارع:

الإعراض المستمر
دليل الكفر
الراسخ والقلب
الساخر

جاء فعل الإعراض في قوله تعالى: ﴿وَأَن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾ بصيغة المضارع في جواب (إِنَّ) الشرطية ليدل على التكرار والاستمرارية، فإعراضهم لم يكن مرة واحدة، بل كان عادة دائمة كلما رأوا آية، ويدل على التعمد والقصد، فالصيغة الزمنية تفيد أن إعراضهم كان فعلاً إرادياً متعمداً، وليس مجرد غفلة أو سهو أو غلبة هوى.

بلاغة التعبير بالجملة الشرطية:

من كفر بالحق
عناداً أعرض
عن العجرات
استهزاءً

آثر النظم الكريم التعبير بأسلوب الشرط في قوله تعالى: ﴿وَأَن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾، فكلما تحقق الشرط (رؤية آية)؛ تحققت النتيجة (الإعراض)، وهذا يقتضي أن هذا السلوك ثابت ومتكرر كلما واجهوا معجزة، مما يجعله ديدناً لهم وعادة وعرفاً مستمراً. فالأسلوب الشرطي هنا يخرج الخبر من كونه حادثة واحدة إلى كونه وصفاً لطبيعتهم وسجيّتهم في التعامل مع الحق⁽¹⁾.

مناسبة عطف القول على الإعراض:

عطف الدليل
على المدلول بيان
للإعراض وتأكيده
للكفر

ناسب عطف القول على الإعراض في قوله تعالى: ﴿يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾؛ لبيان الدليل بعد ذكر المدلول؛ فقولهم بيان للإعراض، وفيه تأكيد على أنهم تحققوا بالكفر باطنًا وظاهرًا، فأعرضوا بقلوبهم، وأظهروا ذلك بقولهم؛ فلم يتركوا لأنفسهم بحبوحة للتراجع أو إعادة النظر، ولم يتركوا فسحة لنبيهم أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 172 / 27.

يَعَذِّرْهُمْ أَوْ يَتَأَنَّى فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ، فَمَنْ نَطَقَ بِمَا فِيهِ، فَقَدْ احْتَجَّ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَطَعَ عَنْهَا الْإِعْذَارَ بِإِظْهَارِ حَالِهِ.

دلالة صيغة المضارعة:

التعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ يدلُّ على أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ دَيَّدْنُهُمْ، وَتَجَدَّدَ مِنْهُمْ، وَيَكَاثُفُهُمْ لَا يَنْفَكُونَ عَنْ اخْتِرَاعِ الْحِيلِ الَّتِي يُلَبِّسُونَ بِهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَيُدَلِّسُونَ بِهَا عَلَى النَّاسِ؛ لِيَكُونَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً فِي الصَّدِّ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ وَسَبِيلِ رَسُولِهِ (1).

فائدة حذف مرجع الضمائر:

ترجع الضمائر في الأفعال ﴿يَرَوْنَ﴾، و﴿يُعْرِضُونَ﴾، و﴿وَيَقُولُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا﴾ على المشركين رغم عدم ذكرهم في الآية؛ ذلك أَنَّ عادة القرآن الكريم عدم تعيين المقصود المعلوم للمخاطبين في السياق إِلَّا لِنُكْتَةٍ، فَإِلَّا جَازَ هُوَ مَسْلَكُ النَّظْمِ، فَحَذَفُ ذِكْرِ الْمُشْرِكِينَ مَعَ عَوْدَةِ الضَّمَاثِرِ إِلَيْهِمْ يُعْطِي إِيجَازًا بِلَاغِيًّا، حَيْثُ يَفْهَمُ السَّامِعُ الْمَقْصُودَ مِنَ الْكَلَامِ دُونَ حَاجَةٍ لِلتَّصْرِيحِ بِهِ، وَلِلْإِضْمَارِ فَائِدَةٌ أُخْرَى: وَهِيَ تَعْمِيمُ الْحُكْمِ؛ فَرِغَمَ أَنَّ الْقِصَّةَ مُرْتَبِطَةٌ بِمَشْهَدِ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، فَإِنَّ عَدَمَ ذِكْرِ مَرْجِعِ الضَّمَاثِرِ يُعَمِّمُ الْحُكْمَ عَلَى كُلِّ مَنْ يَسْلُكُ مَسْلَكَهُمْ؛ فَتَرْجِعُ الضَّمَاثِرُ إِلَى الْمَقْصُودِ الْمُتَعَيَّنِّ فِي الْأَذْهَانِ، سَوَاءً أَكَانَ الْمُشْرِكِينَ عِنْدَ نَزُولِ الْآيَاتِ، أَمْ مَنْ شَابَهُهُمْ عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ، فَإِنَّ الْإِعْرَاضَ مَعَ وَضُوحِ الْحَقِّ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ، وَدَيْدُنُ الظَّالِمِينَ.

غرض تنكير لفظ ﴿سِحْرٌ﴾:

نُكِّرَ لَفْظُ ﴿سِحْرٌ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾؛ وَذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى اخْتِلَافِ دَلَالَةِ الصِّفَةِ عَنِ الْمَوْصُوفِ، فَإِنَّ كَانَ ﴿مُسْتَمِرٌّ﴾

الافتراء المستمرُّ
هو الحقيق
بوصف سحرٍ
مُستمرٍّ

يرجع الضميرُ
إلى معلومٍ في
الأذهان مُتَجَدِّدٍ
على طول الزَّمانِ

دلالة التنكير
مُنْتَزَعَةً مِنْ
القيود ودلالات
السياق

(1) البقاعي، نظم الدرر: 96/19.

بمعنى: (شديد قوي نافذ) فالتنكير للتهويل والتعظيم، وإن كان بمعنى: (دائم متواصل)، فالتنكير للتحقير والتهوين، وإن كان بمعنى: (زائل لا يبقى ومنقطع) فالتنكير للتجهيل والتقليل⁽¹⁾.

تنوع المعاني لمفردة «مُسْتَمِرٌّ»:

تحتمل مفردة «مُسْتَمِرٌّ» في قوله تعالى: «وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» معاني مُتَعَدِّدَةً⁽²⁾؛ منها: أن يكون معناها: دائم مُتَوَاصِلٌ يتجدد ولا ينقضي. أو أن يكون معناها: شديد قوي نافذ لا يُقاوم؛ لبيان أن الآيات هي سحر قوي لا يُقاوم. أو أن يكون معناها: ذاهب زائل مُنْقَطِعٌ لا يبقى؛ وذلك لتهوين شأن آيات الله، وتسفيه أمرها. ولا يمنع أن يقصدوا ذلك كله باختلاف القائل، فإن للناس طرائق في الوصف والبيان، فاستعمل النظم هذه المفردة لبيان مقصود المُشْرِكِينَ جملةً، لا لبيان مقصود بعضهم، فهم يبحثون عن احتجاج يُشْرِعُونَ إنكارهم، فوصفوا الآية بأنها «سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ»؛ لتسويغ الإعراض عنها أمام أنفسهم والناس.

تنوع الاشتقاق لمفردة «مُسْتَمِرٌّ»:

تحتمل مفردة «مُسْتَمِرٌّ» في قوله تعالى: «وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ» أن تكون مُسْتَقَّةً من فعل (مَرَّ) الذي هو مجاز في الزوال، والسَّيْنِ والتَّاء لتقوية الفعل؛ أي: لا يبقى القمر مُنْشَقًّا. والغرض: التَّهْوِينُ، كأنهم يقولون: لا بأس ستمُرُّ الآية كما تَمُرُّ الخُدْعُ. وتحتمل أن تكون مُسْتَقَّةً مِنَ (المِرَّة) بكسر الميم؛ أي: القوَّة، والسَّيْنِ والتَّاء للطلب؛ أي: طُلِبَ لفعله مرَّة؛ أي: قوَّة، والمعنى: هذا سحر مُتَمَكِّنٌ معروف، له أمثلة سابقة⁽³⁾. فنسبوا الآية إلى سحر مُتَمَكِّنٍ نافذ، في محاولة منهم لتفسير وقعها العجيب على الناس، فاحتملت المفردة معنيين

استيعاب المفردة
القرآنية مذاهب
القائلين وتصوير
مقاصدهم

مفردات القرآن
تكشف التباين
في المواقف،
والاختلاف بلفظ
قرآني واحد

(1) للآوردِي، التكت والعيون: 410/5، والتسفي، مدارك التنزيل: 399/3.

(2) للآوردِي، التكت والعيون: 410/5، والتسفي، مدارك التنزيل: 399/3.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 172/27.

مُتَقَابِلِينَ: إِمَّا سَحَرٌ زَائِلٌ لَا بَقَاءَ لَهُ، وَإِمَّا سَحَرٌ قَوِيٌّ مُتَكَرِّرٌ مَأْلُوفٌ، وجاء اختيار مفردة «مُسْتَمِرٌّ» لبيان مَوْقِفِهِمُ الْمُتَبَايِنَ، وما صدر عنهم تجاه الآية التي رأوها، فلا يستطيعون إنكارها، ولا يقدرون على تصديقها، فجاءت هذه المفردة بدلالاتها الاشتقاقية لبيان مَوْقِفَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ، بمفردة أرادتاهما معاً.

نوع الواو ودلالاتها:

الواو في قوله تعالى: «وَكَذَّبُوا» تحتل الاستئناف⁽¹⁾، والمعنى: أَنَّ التَّكْذِيبَ وَاتِّبَاعَ الْأَهْوَاءِ عَادَتُهُمْ وَمَسْلَكُ رَاسِخٍ فِيهِمْ. وتحتمل العطفَ، وَنُكْتَتُهُ التَّنْبِيهُ عَلَى عَادَتِهِمُ الْقَدِيمَةِ؛ فَالِاسْتِنْفَافِ وَالْعُطْفِ مُتَّفِقَانِ عَلَى بَيَانِ أَنَّ التَّكْذِيبَ وَاتِّبَاعَ الْأَهْوَاءِ عَادَةٌ رَاسِخَةٌ فِيهِمْ.

بلادة عطف صيغة الماضي على المضارع:

عُطِفَتِ الْجُمْلَةُ الْخَبَرِيَّةُ «وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ» عَلَى الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ: «يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا»، وَكَانَ حَقُّ الْمَعْطُوفِ عَلَى الشَّرْطِ أَنْ يَأْتِيَ بِالْمُضَارَعَةِ مِثْلَهُ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الشَّرْطِ وَالْجَوَابِ الْاسْتِقْبَالَ، فَكَذَلِكَ مَا عُطِفَ عَلَيْهِمَا؛ لِأَنَّهُ فِي حَيْزِهِمَا، فَعُدِلَ إِلَى الْمَاضِي «وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ»؛ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ التَّكْذِيبَ وَاتِّبَاعَ الْهَوَى مِنْ عَادَاتِهِمُ الْقَدِيمَةِ، فَهُوَ شَأْنُ نَفْسِيٍّ مُسْتَبِدٍّ بِهِمْ، فَلَا يَتَوَقَّفُ عَلَى مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ قَبْلَهُ، فَهُمْ مُعَانِدُونَ مُتَّبِعُونَ لِأَهْوَاهِمُ، وَإِنْ لَمْ تَأْتِهِمْ آيَةٌ، فَعُدِلَ إِلَى الْمَاضِي لِلتَّنْبِيهِ عَلَى قَبِيحِهِمْ وَذَمِّهِمْ بِالذَّلِيلِ وَالْحُجَّةِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: هُمْ قَوْمٌ قَبِيحُونَ فِي تَكْذِيبِهِمْ وَاتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، بِدَلِيلِ أَنَّهُمْ إِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَلَا يَهْتَدُوا، وَأَيْضًا: لِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ الشَّرْطَ لَهُ مَدْخَلٌ فِي التَّكْذِيبِ، وَأَنَّ التَّكْذِيبَ مُسْتَمِرٌّ، لَهُ مَعْنَى الْاسْتِقْبَالَ بِالْإِصْرَارِ وَالِدَّوَامِ عَلَيْهِ كَمَعْنَى الشَّرْطِ⁽²⁾.

الاستئناف
والعطف
مُتَّفِقَانِ عَلَى
بَيَانِ عَادَتِهِمْ فِي
التَّكْذِيبِ وَاتِّبَاعِ
الْأَهْوَاءِ

التَّكْذِيبِ
وَاتِّبَاعِ الْأَهْوَاءِ
مَسْلَكُ رَاسِخٍ
لِلْمُشْرِكِينَ
وَسُلُوكٌ دَائِمٌ

(1) صافي، الجدول: 64 / 14.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 310 / 18، 311.

بلغة الحذف التقابلي:

التكامل
في التقدير
خصيصة يقود
لها حسن
النظر في النظم
الجليل

في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ شبه احتباك، يتمثل في الجمع بين وصف حال المشركين في الماضي والمستقبل في آن واحد، فيظهر استمرار تكذيبهم وإعراضهم عبر الزمن دون تغيير، وتقدير المحذوفات كالآتي: في جانب المستقبل جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾، فالمدكور الإعراض، والمحذوف المقدر: سيكذبون ويتبعون أهواءهم. وفي جانب الماضي جاء قوله: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، فالمدكور التكذيب واتباع الأهواء. والمحذوف المقدر: قد رأوا الآيات فأعرضوا وقالوا: سحرٌ مستمرٌ، فصار المعنى الكامل مستقبلاً: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ، ويكذبوا ويتبعوا أهواءهم)، ماضياً: (وقد رأوا الآيات من قبل، فأعرضوا وقالوا: سحرٌ مستمرٌ، وكذبوا واتبَعوا أهواءهم)، فذكر في كل موضع بعض الأركان، وحذف نظيره اعتماداً على ما ذكر في الجانب المقابل⁽¹⁾. هذا، والتعبير هنا من قبيل (شبه الاحتباك)، إذ وقع التبادل بين الذكر والحذف في مقامي الماضي والمستقبل، فشابه الاحتباك من حيث البنية والصورة، لكنه لم يبلغ رتبة (الاحتباك التام)؛ لافتقاده وحدة السياق والزمان الذي يقوم عليها الاحتباك.

مناسبة العطف وفائدته:

عطف اتباع الهوى على تكذيبهم في قوله: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ من عطف العلة على المعلول؛ لأن تكذيبهم لا دافع لهم إليه إلا اتباع ما تهواه أنفسهم من بقاء حالهم على ما ألفوه وعهده واشتهر دوائمه، فهو لدفع توهم أن تكذيبهم قد يكون حقاً؛ إذ ليس كل تكذيب باطلاً فتكذيب غير الحق من الحق! فنبه تعالى بقوله:

عطف العلة على
المعلوم يدفع
وهم المعاني غير
المرادة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 172 / 27.

﴿وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ على أن تكذيبهم باطلٌ وعدوان، وليس لهم حقٌ واعتبارٌ فيه مثقالَ ذرة⁽¹⁾. فكان في ذلك إخبارٌ عن أن تكذيبهم لاتباع الهوى، لا لشبهة في استشكل الحق⁽²⁾.

نكتة جمع الأهواء:

آثر النظم الكريم جمع لفظ الهوى في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، ولم يقل: (واتبعوا الهوى)، كما قال: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ [النجم: 28] بإفراد الظن؛ وذلك أن الهوى اسمٌ جنسٌ يصدق بالواحد والمتعدد، فعدل عن الأفراد إلى الجمع فقال: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ لمزاوجة ضمير الجمع المضاف إليه في لفظ: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ وللإشارة بجمع الأهواء إلى أن لهم أصنافاً متعددة من الأهواء؛ من حب الرئاسة، ومن حسد المؤمنين على ما آتاهم الله، ومن حب اتباع ملة آبائهم، ومن محبة أصنامهم، وإلف لعوائدهم، وحفاظ على أنفثهم⁽³⁾.

بلغة الاستعارة في لفظ ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ استعارة مكنية، حيث شبهت الآية الأهواء بقيادة يتبعون، وحذف المشبه به ورُمز له بأنه يُتبع، فالاستعارة تصويرٌ للمشركين بأنهم يسيرون في طريق تابعين فيه الأهواء في شتاتٍ وضياحٍ مضلٍّ، وإسناد فعل الاتباع إلى الضمير العائد على المشركين دليلٌ على إرادتهم اتباع الأهواء عن قصدٍ، ففيه عدالة الجزاء لمن اختار هواه متبوعاً له، كما قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: 43].

نوع الإضافة ودلائلها:

أضيف لفظ الأهواء إلى الضمير ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ لتخصيص

تعدد الأهواء
علامة التشبُّه
ودليل الضياع

الهوى للتبع
دين أهل
الضلالة ومنهاج
الغارقين في
الدنيا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 97/19.

(2) القنوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 311/18.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 173، 172/27.

هوى النفس
مكين لا يزول
إلا بإرادة البحث
عن الدين
القويم

إبراز الجناد
يزيد المفارقة بين
وضوح الآيات
وفساد المواقف

تلك الأهواء بهم، فالإضافة بمعنى اللام؛ أي: أنها ليست أهواءً موضوعيةً أو مقبولةً في نظر العقلاء، وإنما هي أهواءٌ صادرةٌ عن نفوسهم هم بالذات، مرتبطةٌ بشهواتهم وحظوظهم، فهم أسرى أهوائهم الخاصة، والإضافة هنا تُشعر بالذم والتقبيح؛ لأنَّ اتِّباع الهوى إذا نُسب إلى النفس دلٌّ على الانغماس في الباطل والانقياد للشهوة دون هدى.

نوع الواو ودلالاتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ تحتل أن تكون للاستئناف؛ فالجملة مُستأنفة لتقرير بطلان ما قالوه من التَّكْذِيبِ وَاتِّبَاعِ الهوى، ولإقناطهم ممَّا علقوا به أمانيتهم الفارغة، من عدم استقرار أمره ﷺ، حيث قالوا: سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ، ببيان ثباته ورسوخه؛ أي: وكلُّ أمرٍ من الأمور مُنتهِ إلى غايةٍ يستقرُّ عليها لا محالة، فالخير يستقرُّ بأهل الخير، والشرُّ يستقرُّ بأهل الشرِّ⁽¹⁾. وتحتل أن تكون للعطف؛ بجعل الجملة معطوفة على قوله: ﴿أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾، والمعنى: اقترَبَتِ السَّاعَةُ، وانشَقَّ القمرُ، وكلُّ أمرٍ قد استقرَّ، فاجتمعت هذه الأمور الثلاثة: قربُ السَّاعةِ، وانشقاقُ القمرِ، واستقرارُ كلِّ أمرٍ. ويكون ما بين الجملتين اعتراض⁽²⁾. ووظيفة الاعتراض أن يقطع سياق الخبر الرئيس (اقتراب السَّاعةِ وانشقاق القمرِ واستقرار الأمور) ليدخلَ وصفًا لحال المخاطبين مع هذه الآيات، وهو قوله: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۖ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، فأفحم وصفَ عنادهم بين الخبرين الرئيسين المعطوفين؛ لتسجيل التباين بين وضوح الآيات وفساد مواقفهم، وتبيين أنَّ استقرار أمرهم على الخيبة إنما هو ثمرةُ تكذيبهم وإعراضهم.

(1) القنوجي، فتح البيان: 288 / 13.

(2) القنوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 312 / 18.

نُكْتَة استعمال لفظ العموم (كُلّ):

أفاد لفظُ العموم (كُلّ) في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ الاستغراق؛ أي: أنَّ جميع الأمور من إيمانٍ وكفر، وخيرٍ وشرٍّ، وحقٍّ وباطل، لها غاية ثابتة لا محالة، فيستقرُّ الحقُّ على نصره، والباطل على خيبته.

كُلُّ شَأْنٍ
مَرَدُّهُ إِلَى غَايَةٍ
مَحْتَوَمَةٌ يَسْتَقَرُّ
عِنْدَهَا

دلالة المجاز بالعموم:

في قوله سبحانه: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ مجازٌ بعموم المجاز؛ لأنَّ الأمرَ أعمُّ مِنَ الموجود الآن، فيشمل ما وُجِدَ بالفعل، ويشمل المعدوم الذي سَيَبُتُ ويستقرُّ حتمًا فيما بعد⁽¹⁾. فقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ لا يقتصر على الأمور الحاصلة الآن، بل يشمل الحقائق الثابتة، كتكذيبهم الآن، والنتائج المترتبة عليها، كعقوبتهم الآتية، وظهور الحقِّ، وهلاكِ الباطل. ف(كُلُّ أَمْرٍ) له قرار؛ أي: مآلٌ نهائيٌّ يستقرُّ عنده، في وقته المُقَدَّر له، سواء أدركه المُشْرِكُونَ وقت نزول الآية، أم لم يُدركوه. وهذا الاستقرار قد يكون: ثباتًا في الدُّنْيَا (كنصر الحقِّ، أو خذلانهم)، أو في الآخرة (كاستقرار أهل الحقِّ في الجنة، وأهل الباطل في النَّار). فكأنَّه قيل: كُلُّ أَمْرٍ دُنْيَوِيٍّ أو آخِرَوِيٍّ له قرارٌ وثبوتٌ في الحال والمآل، فيَحْيَقُّ بأهل الخير ويَحْيَقُّ بأهل الشرِّ، فالخيرُ مُسْتَقَرٌّ بأهله في الجنة، والشرُّ مُسْتَقَرٌّ بأهله في النَّار⁽²⁾.

غرض تكبير لفظ ﴿أَمْرٍ﴾:

نكَّر لفظُ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ للتعميم؛ أي: كُلُّ شَأْنٍ من شؤون الخلق والجزاء وإجابة الدَّعوة أو ردِّها، صغيرًا كان أم كبيرًا، مصيرُهُ إلى الاستقرار الَّذِي قضاه الله، فلا يخرج عن حُكمه تعالى ومُرادِه، والأمر واحدُ الأمور، لا واحدُ الأوامر.

جميع شؤون
الخلق تجري
إلى تقدير العزيز
العليم

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البضاوي: 311 / 18.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 114 / 22.

توجيه القراءات القرآنية:

كلُّ أمرٍ مستقرٍّ
يقترِب من مآله
مع اقتراب
السَّاعة

قرأ الجمهور: ﴿مُسْتَقَرٍّ﴾ بالرفع، وهي جملة خبرية مُستقلة، تُفيد تقريراً كلياً؛ كلُّ أمرٍ ثابتٌ إلى غايته، وهذا أعمُّ وأشمل في تعميم اليقين وتقويته، ولذلك فهي جارية مجرى المثل والقانون العامِّ المطرد، وقرأ أبو جعفر: ﴿مُسْتَقَرٍّ﴾ بالجر، على أنَّ (كلُّ أمرٍ) معطوفٌ على السَّاعة؛ والمعنى: اقترَبَت السَّاعة، واقترب كلُّ أمرٍ مُستقرٍّ⁽¹⁾.

دلالة التعبير بلفظ ﴿مُسْتَقَرٍّ﴾ مادَّةً وصيغةً:

كلُّ أمرٍ يتَّجه
إلى نهايته بنبأ
ورسوخ

جاء التعبير بصيغة اسم الفاعل ﴿مُسْتَقَرٍّ﴾ من استقرَّ؛ لما يفيدُه من معنى المبالغة في الثبوت؛ لأنَّ زيادة السَّين والتَّاء تفيد قوَّة الفعل؛ أي: ليس قراراً مُحتملاً بل راسخاً محتوماً⁽²⁾، وتدلُّ مادَّة اللفظ مع دلالة صيغة اسم الفاعل على اللزوم والدوام والاستمرار، فكلُّ أمرٍ لا بدَّ أن يبلغ نهايته ويستقرَّ فيها، من غير تردُّد ولا رجوع⁽³⁾.

بلاغة التذييل وفائدته:

ربطُ استقرار
الأُمور كُلِّها
بنهاية العالم
للجزاء

التذييل بقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ تقريرٌ لمضمون ما قبله، يجمع بين التهديد والطمأننة، والوعد والوعيد، ويؤسِّس لقاعدة كونية عظيمة، وسنة من سنن الله لا تتخلَّف: أنَّ كلَّ أمرٍ في الوجود، سواء ما وقع منه أم ما هو في طور الغيب، له مُستقرٌّ محتومٌ يستقرُّ عنده في الوقت الذي قدره الله له. وقد جاءت كلمة ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ في سياق مجازٍ بعموم المجاز⁽⁴⁾؛ لتدلَّ على أنَّ الأُمور كُلِّها، من خيرٍ وشرٍّ، حقٌّ وباطل، نصرٍ وخذلان، كُلُّها سائرة إلى غاياتها المرسومة، لا تتخلَّف ولا تتقدَّم، وهذا يُشعر بأنَّ تكذيب المُكذِّبين ليس نهاية المطاف، وأنَّ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 380، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 311 / 18، 312، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 174 / 27.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 174 / 72.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (ق).

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 311 / 18.

اتَّبَاعَهُمُ لِلْهَوَى لَا يَغَيِّرُ مِنْ مَّالَاتِ الْأُمُورِ شَيْئًا، فَلَكَ حَقُّ يَوْمٍ يَظْهَرُ فِيهِ، وَلَكُلِّ بَاطِلٍ أَجَلٌ يُقْبَرُ فِيهِ، وَيتَلَاشى عنده. ففي التَّذْيِيلِ بهذه الجملة تقريرٌ لِحتميةِ المصير، وأنَّ التَّكْذِيبَ واتِّبَاعَ الْهَوَى لَا يُغَيِّرَانِ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي اسْتِقْرَارِ الْأُمُورِ وانكشافِ الْعَوَاقِبِ شَيْئًا.

بلادة الاستعارة التمثيلية:

في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ استعارة تمثيلية مكنية، شبه الله تعالى حركة الأمور في العالم، كالتكذيب والحق والباطل والعواقب، برحلة شخص يسير نحو مكانٍ مُحدَّدٍ، يقترب حينًا ويبتعد حينًا، حتَّى يبلُغَ الْمَوْضِعَ الْمَعْيَنَ لَهُ وَيَسْتَقَرُّ فِيهِ. وهذه الصَّورة الكاملة حُذِفَتْ، وأشير إليها بكلمة ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾، فكانت استعارة تمثيلية مكنية. فصار هنا تمثيلٌ مكنيٌّ: شبه الحالة بمعنى مُركَّبٍ (رحلة السائر)، ثم حُذِفَ المُشَبَّه به، وأُبْقِيَتْ كلمة واحدة ترمز إليه، وهي ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾. وَوَجْهُ الشَّبَهِ أَنَّ كَلَامًا مِنَ (الأمر) و(السائر) يتحرَّكُ نَحْوَ غَايَةٍ مُقَرَّرَةٍ لَهُ، وَقَدْ يَتَأَخَّرُ أَوْ يَتَقَدَّمُ، لَكِنَّهُ يَسْتَقَرُّ فِي النِّهَايَةِ فِي مَوْضِعِهِ الْمَحْتَمَلِ (1).

نوع الواو ودلائلها:

تحتل الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ أن تكون للاستئناف، فبعد أن ذكر تكذيبهم واتِّبَاعَهُمُ الْأَهْوَاءَ، استأنف الكلام بذكر أمرٍ آخر يزيدهم توبيخًا وتقريعًا، وهو أَنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مَا فِيهِ زَجَرٌ لسلوكهم ومعتقدهم، وتحتل أن تكون عاطفة الجملة على جملة ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾، وفي هذا العطف معنى الاستدراك الضمني على مَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّ تَكْذِيبَهُمْ رَبِّمَا حَصَلَ بِسَبَبِ أَنَّ مَا جَاءَهُمْ لَمْ يَكُنْ كَافِيًا فِي إِقْنَاعِهِمْ (2)، فأكد هنا

اتَّبَاعَ الْهَوَى لَا
يُغَيِّرُ سُنَنِ اللَّهِ
فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ

مِمَّا يَزِيدُ مِنْ
تَبْكَيتِ الْمُعَانِدِينَ
وَتَقْرِيعِهِمْ أَنَّهُ
قَدْ جَاءَهُمْ
الزَّاجِرُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 173 / 27.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 98 / 19.

تلك المفارقة، وهو أنهم تلقوا ما يكفي لزعجهم وردعهم، من أنباء فيها عبر وعظات، إلا أنهم مع ذلك كذبوا وأتبعوا الهوى! فأعطوا من وسائل الهداية أقواها، ومع ذلك لم يرددوا، بل أصروا على التكذيب والهوى. والربط بين الجملتين يُظهر أن الضلال لم يكن عن جهل، بل عن عناد واختيار، وأن الحجة قامت، لكنهم انحازوا للهوى، مع التذكير بأن الأمر سيستقر وتكشف عواقبه في النهاية. فهو عطف فيه تقرير للحجة، وإدانة للغفلة.

نوع اللام ودلائلها:

اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ﴾ لام جواب القسم الدالة على حذفه، والتقدير: (والله لقد جاءهم)، ويصح أن تكون اللام لتأكيد الإثبات، فالجملَةُ مؤكدةٌ بها كتوكيد القسم، وليست بقسم⁽¹⁾. وعلى كل فتصديرها بالقسم أو التوكيد فقط، مع التحقيق بـ(قد) - يدل على إبراز كمال العناية بمضمون الجملة.

بلاغة المجاز العقلي:

إسناد فعل المجيء إلى ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ مجازٌ عقلي، والمراد أنها أبلغت إليهم وبلغتهم بوساطة الرسول، فالذي جاءهم بما فيه مُزْدَجَر هو رسول الله ﷺ، إذ الترهيب لا يأتي بذاته، بل يأتي به ناقله ومبلغه، ووجه البلاغة في ذلك: أن الإسناد تجسيدٌ وتصويرٌ للأمر الزاجر، مبالغة في وضوح الحجة وقربها، فلا يُعذرون في الإعراض عنها.

نوع ﴿مِنْ﴾ ودلائلها:

(من) في قوله تعالى: ﴿مِنْ الْأَنْبَاءِ﴾ تحتل التبعية⁽²⁾؛ أي: جاءهم بعض الأنباء الذي فيه مُزْدَجَر. فبعضها ترهيبٌ وزجرٌ،

عناية الله بإقامة
الحجج قاطعة
أعداز المكذبين

الحجة الإلهية
بلغت القلوب
واضحة فلا عذر
في الإعراض عنها

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 181.

(2) الألويسي، روح المعاني: 14/ 78.

وبعضها ترغيبٌ وذكْرٌ. وإنَّما خصَّ هنا المُزْدَجَر منها؛ لسياق التَّكْذِيب والإِعْراضِ واتباع الهوى، وتحتلَّ التَّيْبِين؛ لبيان قوله: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾، بتقديم المُبَيَّنِّ على المُبَيِّن. بناءً على المختار من جواز تقديمه على المُبَيِّن، وإنَّما جاز تقديم (من) المبيَّنة على المُبْهَم في نحو - عندي من المال ما يكفي -؛ لأنَّ المُبَيَّنِّ في الأصل صفةٌ مُقَدَّرٌ؛ أي: شيءٌ من المال، والمذكور (المُبَيِّن) عطفٌ بيانٍ للمُبَيَّنِّ المُقَدَّر قبل (من)؛ ليحصلَ البيانُ بعد الإبهام⁽¹⁾.

معنى تعريف لفظ ﴿الْأَنْبَاء﴾:

(أ) في لفظ ﴿الْأَنْبَاء﴾ للعهد الذَّهْنِيّ، فهي أنباء القرآن في شأن القرون السَّالفة، وتوجَّه على أنَّها عوضٌ عن مضاف إليه محذوف، تقديره: أنباء القرون الخالية، وهي أنباء التَّعْذِيب والوعيد، أو أنباء السَّاعة (الآخرة)⁽²⁾، أو أنباء الآيات الكونيَّة، كانشقاق القمر، أو أنباء آياتِ الوحي وهو القرآن.

بلادة اختيار مفردة النَّبَأ:

آثر النِّظْمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿الْأَنْبَاء﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تهويلٍ وزجرٍ، ولأنَّها أنباءٌ عظيمةٌ عن مصائر الأمم المُكْذَّبة، وليست مُجَرَّدُ أخبارٍ تاريخيَّةٍ ولا أحاديثٍ مُتداوِّلة، فلو قيل: (جاءهم من الأحاديث)، لكان المعنى: ما يتحدَّث به النَّاسُ أو ما يتداولونه من قصص، وهذا يُشعرُ بهوانِ المقام، بل قد يحمل معنى ما لا يوثقُ به. وسياقُ سورة القمر مقامُ إنذارٍ وتهويلٍ، فلا يناسبُه لفظُ (الأحاديث) الَّذي يُوهِمُ بالقصص المُتداوِّلة. ولو قيل: (الأخبار) لكان المعنى: مُجَرَّدُ أخبارٍ منقولة. و(الخبر) لفظ عامٌّ، لا يقتضي

الزَّجَرُ المانع
عن التَّمادي
في الشُّرك بيانٌ
لبعض أنباءِ
القرآن

الزَّجَرُ المذكور
مخصوصٌ بأنباءِ
الوعيد والتهديد

السِّياق هو الَّذي
يجتبي الألفاظَ،
وإنَّادي على
المقصود

(1) الألوسي، روح المعاني: 78 / 14.

(2) القنوني، حاشيته على تفسير البياضوي: 312 / 18.

العظمة، ولا يُثِيرُ الرّهبة بالضرورة. والآية تريد أن تبين أن ما جاءهم ليس أخباراً عادية، بل حقائق جليّة هائلة فيها عبرة وزجر. **نوع ﴿مَا﴾ ودلائلها:**

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ إمّا موصولة، وهو الظاهر، وإمّا نكرة موصوفة؛ أي: جاءهم شيء فيه مُزْدَجَر، وعلى القولين هي فاعل ﴿جَاءَهُمْ﴾⁽¹⁾.

بلاغة صيغة ﴿مُزْدَجَرٌ﴾:

المُزْدَجَر: مصدرٌ ميميّ، وهو مُصاغ بصيغة اسم المفعول الذي فعله زائدٌ على ثلاثة أحرف (مُفْتَعَل). وازْدَجَرَه بمعنى زَجَرَه، ومادة (الافتعال) فيه للمبالغة، والدالُّ بدلٌ من تاء الافتعال التي تُبدلُ بعد الزاي إلا مثلُ ازداد: أي: ما فيه مانعٌ لهم من ارتكاب ما ارتكبه⁽²⁾، والمصدرُ الميميُّ يدلُّ على مُنتهى الحدث وغايته، ويَحْمِلُ معه عنصرَ الذات، فهو يدلُّ على الحدث نفسه (الزجر)، ويدلُّ على الغاية منه، وهو الزجر الشديد القاطع، ويستصح ذاتاً، وهي الآيات الزاجرة، والإنسان المُستهدف بها⁽³⁾، ويصحّ أن يكون ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ اسمَ مكان مجازيٍّ؛ أي: الأنباء كانت لهم موضعَ زجرٍ⁽⁴⁾.

دلالة تاء الافتعال في ﴿مُزْدَجَرٌ﴾:

﴿مُزْدَجَرٌ﴾ على وزن (مُفْتَعَل)، صيغة اسم مفعول من فعل (ازدجر)، على زنة: (افتعل)، من (الازدجار) على زنة (الافتعال). ومن قواعد الصّرف: أن تاء الافتعال تتحوّل إلى دال إذا وقع قبلها زاي أو دال، تخفيفاً في النطق. فبدل أن نقول: ازترجر، صارت: ازْدَجَر (قُلِبَتِ التاء دالاً بعد الزاي). وهذا يحدث في أفعال مثل:

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 137/ 27.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 175/ 27.

(3) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 31.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 98/ 19.

الزجر القرآني
هو أعلى مراتب
البيان بما لا
يحتمل التأويل
والنكران

ليس بعد زجر
القرآن زاجر

(ازدَكَر) (أصلها: اتَذَكَر)، و(ازدَجَر) (أصلها: اتَزَجَر). وصيغة (الافتعال) - هنا - تُضيف معنى المبالغة والقوّة والشدّة في الزَجَر⁽¹⁾. فالمعنى: ليس مجردَ زجر، بل زجرٌ شديد وقاطع؛ أي: أنّ الأنبياءَ الّتي جاءَتهم تحوي زجرًا شديدًا يمنعُهم لو عقلوا، لكنّ ذلك لم يُؤثّر فيهم بسبب عنادهم.

غرض تنكير ﴿مُزْدَجَرٌ﴾:

تنكير ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ يفيد التّعظيم والتّهويل لشأن الزجر الكامن في تلك الأنبياء.

بلاغة فنّ التجريد:

جاء لفظُ الازدجار مطروفاً في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ دون أن يقول: (ما هو مزدجر)، على معنى: (جاءهم مُزْدَجَرٌ مِنْ الأنبياء)، وهو شبيهٌ بقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]. ف﴿أُسْوَةٌ﴾ تعني: قدوة، وكان يمكن أن يُقال: (لقد كان رسول الله لكم أسوة)⁽²⁾، وهذا على التجريد، وهو نزعٌ صفةٍ عن صاحبها ثم جعلها شيئاً مُستقلاً، كأنها شيءٌ قائمٌ بنفسه داخلُ الموصوف⁽³⁾، وذلك ليدلّ على أنّ الزجر ليس شيئاً عارضاً، بل كأنّ الأنبياء تفيض به وتُحاط به.

نُكْتة تقديم الجارّ والمجرور على ﴿مُزْدَجَرٌ﴾:

قدّم ذكر الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ لنُكْتة بلاغيّة رفيعة، وهي إفادة التّخصيص⁽⁴⁾، كأنّه قيل: في هذه الأنبياء خاصّةً مُزْدَجَرٌ لهم. فلو قيل: (ما مُزْدَجَرٌ فيه) لكان المعنى عامّاً، لكن لما قدّم الجارّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾ على المبتدأ ﴿مُزْدَجَرٌ﴾ أفاد أنّ

المبالغة في زجر
الكافرين لم
يزدهم إلا بُعداً
عن اليقين

زواجر الباطل
ملبئة في القرآن
مكتنزة في
تراكيب البيان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 175 / 27.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 175 / 27.

(3) حسن، البلاغة العربيّة: 434 / 2.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 98 / 19.

الزَّجَرَ كائِنْ فِي ذَاتِهِ، كَامِنْ فِي مَضْمُونِهِ لَا فِي غَيْرِهِ، وَكَأَنَّكَ تَقُولُ: مَا مُزْدَجَرٌ إِلَّا فِي هَذَا الَّذِي جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ. فَأَفَادَ التَّقْدِيمُ الْحَصَرَ أَيْضًا؛ أَي: أَنَّ هَذِهِ الْأَنْبَاءَ هِيَ مَظَنَّةُ الزَّجَرِ وَمَحَلُّهُ دُونَ غَيْرِهَا. وَأَفَادَ التَّوَكِيدُ أَنَّ الزَّجَرَ ثَابِتٌ وَمُتَحَقِّقٌ، وَمَغْرُوزٌ فِي هَذِهِ الْأَنْبَاءِ، لَا انْفِكَاءَ لَهُ عَنْهَا. وَهَذَا يَتَنَاسَقُ مَعَ نَكْتَةِ التَّجْرِيدِ، فَتَقْدِيمُ ﴿فِيهِ﴾ يُعَزِّزُهُ.

علة فضل ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾:

فَصَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾⁽¹⁾ لِأَنَّهُ بَدَلٌ مِنْ ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾؛ أَي: جَاءَتْهُمْ حِكْمَةٌ بِالْغَةِ⁽²⁾؛ فَهُوَ كِمَالُ اتِّصَالٍ، أَوْ اسْتِثْنَاءٍ خَبَرٍ لِمَبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ؛ أَي: هُوَ حِكْمَةٌ بِالْغَةِ⁽²⁾.

غرض تنكير لفظ ﴿حِكْمَةٌ﴾:

نُكِّرَ لَفْظُ ﴿حِكْمَةٌ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾⁽¹⁾ لِلتَّفْخِيمِ، وَأَنَّهَا حِكْمَةٌ فَائِقَةٌ لَا مَزِيدَ عَلَيْهَا، وَلِلتَّعْظِيمِ وَتَكْثِيرِ النَّوعِ؛ أَي: هِيَ حِكْمَةٌ مُتَجَدِّدَةٌ كَثِيرَةُ الْأَنْوَاعِ، لَا يُحَاطُ بِهَا⁽³⁾.

بلاغة استعمال مفردة ﴿بَلِغَةٌ﴾ مادةً وصيغةً:

جَاءَتْ كَلِمَةُ ﴿بَلِغَةٌ﴾ صِفَةً لِحِكْمَةٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ﴾⁽¹⁾، وَهِيَ مِنْ حَيْثُ الْمَادَّةُ تَدُلُّ عَلَى الْوُصُولِ وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى الْغَايَةِ⁽⁴⁾، وَأَنَّ الْأَنْبَاءَ الَّتِي هِيَ آيَاتُ اللَّهِ غَايَةٌ فِي تَقْرِيرِ الْحُجَجِ، وَتَامَةٌ فِي دَفْعِ الْإِلْبَاسِ وَالظَّنِّ⁽⁵⁾، وَلَيَدُلُّ بِالْوُصْفِ عَلَى أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْءٍ يَحْكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ إِلَّا وَكَانَ مَبْنَاهُ عَلَى الْحِكْمَةِ الْكَامِلَةِ، فَلَا يَعْتَوِرُهُ نَقْصٌ، وَلَا يَفْتَقِرُ لِتَكْمِيلٍ أَوْ تَعْقِيبٍ بِالنَّقْدِ وَالِاسْتِدْرَاكِ. وَمِنْ جِهَةِ الصِّيغَةِ فَهِيَ اسْمُ فَاعِلٍ مُؤَنَّثٍ تُفِيدُ كَوْنَ الْحِكْمَةِ وَاصِلَةً إِلَى أَقْصَى مَرَاتِبِهَا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 175 / 27.

(2) صافي، الجدول: 64 / 14.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 98 / 19، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 313 / 18.

(4) الرَّاغِب، المفردات: (بلغ).

(5) القصاب، النكت الدالة على البيان: 206 / 4.

الفصل لكمال
الاتصال أو
للاستئناف

تفخيم الحكمة
وتعظيمها

حكمة الله
كاملة المضمون
بالغة الإحكام

فقد بلغت الغاية في الإحكام والكمال، لما لاسم الفاعل من دلالة على تمكن الوصف وثبوته⁽¹⁾. فالوصف بالبلوغ يُفيد تمامها بعدم النقص، وإحكامها بنزاهتها عن الاحتمال والتبدل⁽²⁾.

نكتة حذف متعلق «بَلِغَةً»:

حُذِفَ مفعول «بَلِغَةً» في قوله تعالى: «حِكْمَةٌ بَلِغَةً»؛ لإفادة الإطلاق والتعميم؛ أي: أن الحكمة قد بلغت غايتها في ذاتها كملاً ووضوحاً، وبلغت غايتها في وصولها إلى المخاطبين، فاجتمع لها تمام الكمال في حقيقتها، وتماّم البلاغ في نفاذها. فحذِفَ المفعول أتاح شمول الوجهين معاً⁽³⁾.

كمال الحكمة
في ذاتها، وكمال
وصولها إلى
المخاطبين

نوع الفاء ودلالاتها:

الفاء في قوله تعالى: «فَمَا تُغْنِ التُّذْرُ» تفرعية؛ إما على قوله: «حِكْمَةٌ بَلِغَةً»؛ لترتيب عدم إغناء التذُر على مجيء الحكمة البالغة مع كونها مُستوجبة للإغناء والاكتفاء⁽⁴⁾. وإما تفرعية على جواب القسم المتقدم في قوله: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ»⁽⁵⁾؛ أي: بالله لقد جاءهم كائن من الأنباء ما فيه ازدجار لهم⁽⁶⁾، فما أغناهم ذلك، وما كفاهم. فالفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الأنباء.

الحكمة البالغة
للعقول
البالغة، لا
للعقول الواهمة

نوع (ما) ودلالاتها:

(ما) في قوله تعالى: «فَمَا تُغْنِ التُّذْرُ» إما نافية على الإخبار، وإما استفهامية على الإنكار⁽⁷⁾. فالمعنى على احتمال النفي؛ أي:

تحتمل (ما)
النفي على
الإخبار، أو
الاستفهام على
الإنكار

(1) فاضل السامرائي، معاني الأنبياء، ص: 41.

(2) الجلالين، تفسير الجلالين، ص: 705.

(3) الماوردي، التكت والعين: 411 / 5، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 312 / 18.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 168 / 8، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 175 / 27.

(5) الخطيب وآخرون، التفصيل في إعراب التنزيل: 139 / 27.

(6) الألوسي، روح المعاني: 78 / 14.

(7) الرمخشري، الكشف: 432 / 4، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 164 / 5.

لا تُغْنِي عَنْهُمْ النُّذُرُ شَيْئًا. فمفعول ﴿تُغْنِي﴾ محذوف⁽¹⁾؛ فيكون تمهيداً لقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، فالمضارع المنفِي ﴿فَمَا تُغْنِي﴾ للحال والاستقبال؛ أي: ما هي مُغْنِيَّة، ويفيد بالفحوى أَنَّ تلك الأنبياء لم تُغْنِ عَنْهُمْ فيما مضى بطريق الأخرى؛ لأنه إذا كان ما جاءهم مِنَ الأنبياء لا يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ الانزجار شيئاً في الحال والاستقبال، فهو لم يُغْنِ عَنْهُمْ فيما مضى؛ إذ لو أغنى عنهم لارتفع اللوم عليهم⁽²⁾. والمعنى على الاستفهام الإنكاري: ماذا تفيد النُّذُرُ في أمثالهم المكابرين المُصْرِّين، أي: لا غِنَاءَ لَهُمْ فِي تِلْكَ الْأَنْبِيَاءِ، ف (ما) على هذا في محلِّ نصبٍ على المفعول المُطلق لِفعل (تُغْنِي)، وحُذِفَ مَا أُضِيفَتْ إِلَيْهِ (ما). والتقدير: فَأَيُّ غِنَى تُغْنِي النُّذُرُ عَنْهُمْ⁽³⁾ ١٩.

بلاغة التعريض في مفردة ﴿تُغْنِي﴾:

النُّذُرُ تُغْنِي
أَصْحَابَ
العقول الراقية
ويستغني عنها
فاقدو القلوب
الصافية

تدلُّ كلمة ﴿تُغْنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغْنِي النُّذُرُ﴾ على الكفاية والمنع مِنَ الحاجة⁽⁴⁾، فالتنفي هنا يُبرز أَنَّ النُّذُرَ لَا تَمْلِكُ دَفْعًا وَلَا كَفَايَةً، والتعبير بهذه المفردة فيه إيماءٌ إِلَى أَنَّ شَأْنَ النُّذُرِ أَنْ تُغْنِيَ طَالِبَ الْحَقِّ فَتَوَرَّثَهُ الْفَهْمُ وَالْعِلْمُ بِمَا يَرْعَوِي بِهِ عَنِ الْبَاطِلِ وَالْغَيِّ وَاتِّبَاعِ الْهَوَى، ففيها تعريضٌ بِمَنْ أَغْنَتْهُ النُّذُرُ، وتصريحٌ بِمَنْ اسْتَغْنَى عَنْهَا.

بلاغة التعريض في مفردة ﴿تُغْنِي﴾:

تَجَدَّدُ الْإِغْنَاءِ
مَنْفِيٌّ عَنِ الْأَثَرِ لَا
الواقع

جاءت مفردة ﴿تُغْنِي﴾ بصيغة المضارع في حيز النفي؛ لتفديد الاستمرار والتجدد؛ أي: أَنَّهَا لَا تُغْنِي فِي أَيِّ وَقْتٍ أَوْ حَالٍ. فنفي الإغناء بالمضارع يُصَوِّرُ عَجْزَ النُّذُرِ الْمُطْلَقِ وَالْمُتَكَرِّرِ عَنْ أَنْ تُجْدِيَ

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في الإعراب: 27 / 138.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27 / 175.

(3) القنوي، حاشيته على تفسير البياضوي: 18 / 313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 27 / 175.

(4) ابن منظور، لسان العرب: (غنا)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غنى).

أو تكفي في ردِّهم عن العناد⁽¹⁾، وفيه بيان لحال المعرضين، وأنَّهم بلغوا مرحلة الرّان على القلوب، بحيثُ مهما استجدَّ لهم مِنَ النُّذُرِ، فإنَّهم مُعاندون مُكابِرون، فالنَّفْيُ تسلَّطَ على تجدد الإغناء؛ لإفادة ثباتهم على الباطل.

توجيه لطيفة حذف الياء:

فعل ﴿تُنْغِي﴾ مضارعٌ مرفوع، حُذِفَتْ منه الياء رسماً من غير موجب كجزمٍ وغيره، اتِّباعاً لِسُنَنِ المصاحف، ومراعاةً لحال الوصل عند التقاء الساكنين الذي يَسْتَوْجِبُ الحذف، فطَوِيقِ الرَّسْمِ بالنَّطْقِ وصلاً⁽²⁾، وفي الحذف لطيفة إشاريّة خفيّة تشير إلى شدة النَّفْيِ وقَطْعِ الأمل من أيِّ فائدةٍ للنُّذُرِ مع أصحاب العقول العنيدة، فَحُذِفَ حرفُ المدِّ ليطابق معنى الانقطاع والعدم، إيماءً إلى عدم جدوى النُّذُرِ معهم⁽³⁾.

نكتة حذف متعلّق الإغناء:

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ فعلِ الإغناء في قوله تعالى: ﴿فَمَا تُنْغِي النَّذُرُ﴾، فلم يُقَل: عنهم أو عن عذاب الله ونحو ذلك؛ لإفادة الإطلاق والعموم، فالنُّذُرُ لا تُغْنِي عنهم شيئاً البتّة، في أيِّ وجهٍ من وجوه النَّفْعِ أو الكفاية؛ فَحُذِفَ المُتَعَلِّقُ أفاد إطلاق المعنى، فزاد في قوّة النَّفْيِ وعمومه، كما أنّه أكسب النُّظْمَ تحسيراً عليهم، وتهكُّماً بهم، فَلِحَذَفِ رسالةٌ تفوق رسالة الذِّكر، وله سلطانٌ على عقول الأفهام ما لا يُحِيطُ به ضعفاءُ الأفهام.

بلاغة الاحتمال في مفردة ﴿النُّذُرُ﴾:

تحتّم أن تكون كلمة ﴿النُّذُرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا

سقوط حرف
الياء إيماءً إلى
سقوط حظّ
المُشْرِكِينَ

رُبَّ حذفي أورت
مِنَ المعاني ما
لا تُفِيدها ألفاظُ
البَّاني

(1) أبو السَّعود، إرشاد العقل السليم: 168 / 8.

(2) صافي، الجدول: 65 / 14.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 98 / 19.

تَعْدُدُ
الاحتمالات
يُعَاظِدُ
الاستغراق
الشُمُولِي

تُعْنِي التَّنْذُرُ جمع نذير - وهو الظاهر، أي: (الْمُنْذَرُ بِهِ)، وهي الآيات أو الإنذارات أو الرسائل، ويؤيده إسنادُ الفعل المؤنث في **«تُعْنِي»** إليه. ويؤيده: أَنَّ الكلامَ على الأنباء والحكمة، وهي من مضامين الرسائل والآيات، ويحتمل أن يكون **«التَّنْذُرُ»** جمع نذير بمعنى المُنْذِرِينَ وهم الرُّسُل، ويكون تأنيث الفعل **«تُعْنِي»** مراعاةً للفظِ التَّنْذُرِ لا لمعناه. ويحتمل أن يكون **«التَّنْذُرُ»** مصدرًا بمعنى الإنذار. ويُعْتَرَضُ على هذا القول: أَنَّ الأصل في المصدر ألا يُثَنَّى ولا يُجْمَع؛ لدلالته على الجنس. والجواب عليه: أَنَّهُ يجوز أن يأتي المصدر على صورة الجمع، إمَّا على معنى المَرَّاتِ كما في (فُعُود) و(جُثُوم) أريد بهما القعدات والجثومات، وإمَّا على معنى الأنواع: فَيُجْمَعُ باعتبار اختلاف أنواعه. كما أَنَّ ثَمَّةَ تداخلٍ بين أوزان الجمع وأوزان المَصَادِر، بحيث قد يتبادلان الدلالة. فكما يأتي جمعُ التَّكْسِيرِ على وزن المَصْدَر، كما في: سُجُودٌ وحُضُورٌ، جمع حاضر وساجد، رغم أنَّهما في الأصل على وزن المصدر⁽¹⁾. فيمكن للمصادر أن تأتي على أوزان الجموع كذلك. وعليه، فالاعتراضُ على المَصْدَرِيَّةِ ليس قاطعًا⁽²⁾.

معنى تعريف لفظ **«التَّنْذُرُ»**:

(أَل) في لفظ **«التَّنْذُرُ»** في قوله تعالى: **«حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُعْنِي التَّنْذُرُ»** جنسيَّةٌ للاستغراق، وهي تفيد شمول كلِّ التَّنْذُرِ الَّتِي أَنْذَرْتَهُمْ مِنَ الرُّسُلِ والكتب والآيات القرآنيَّةِ والكونيَّةِ قبل ذلك، فالتعبير بـ **«التَّنْذُرُ»** بـ (أَل) الاستغراق يُبرِزُ أَنَّ جميع صور الإنذار، على كثرتها وتنوعها، لا تُعْنِي عنهم شيئاً، وهو ما يزيد من عنصر تبكيت القوم وتوبيخهم.

كلُّ إنذارٍ بخم
للعَدُومِ عند
صاحب القلب
للعَدُومِ

(1) فاضل السامرائي، معاني الأنبياء، ص: 139.

(2) القنوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 313/18، والآلوسي، روح المعاني: 78/14.

نوع الفاء ودلائلها الرباطية:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ تحتل أن تكون تفرعية على قوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾؛ أي: أعرض عن مجادلتهم؛ فإنهم لا تفيدهم النُّذُرُ؛ أي: إنك قد بلغت، فما أنت بمسؤول عن استجابتهم، وفيه تسليّة وتخفيف وإعذار تامٌّ للنبي ﷺ ومراعاةً لخاطره⁽¹⁾. وتحتل أن تكون الفصيحة؛ أي: إذا كان الأمر كذلك فتولّ، فالجملة جواب شرط مُقدَّر، أو هي فاء السببية⁽²⁾. وعلى مجموع الاحتمالات فالفاء نتيجة للكلام السابق، وفي مدخولها معنى المتاركة والمواذعة؛ وذلك أنه تعالى لما أخبر عن المعاندين، وأنه بلغ إعراضهم وتمردهم بحيث إن يروا آية يقولوا: سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ، وكرّر المعنى بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾؛ لأن الإعراض وقولهم: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ تكذيب ومتابعة للهوى، ثم جاء بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ جملة قسمية حالاً مُقرّرة لجهة الإشكال؛ أي: يكذبون، والحال أنه جاءتهم حكمة بالغة، ثم سجّل عنادهم بقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾؛ أي: بعد أن استعلمت حالهم، وأنهم لا يؤمنون بالبتّة، فتولّ عنهم، وأعرض عن الإنذار؛ لأن الإنذار إنما يفيد إذا انتفع به المنذر⁽³⁾.

غرض الأمر ودلائله:

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لتهديد المكذّبين؛ فهو تهديدٌ ضمنيٌّ لهم؛ أي: دَعَهُمْ وما اختاروا، فسوف يلقّون عاقبةً عنادهم. وللتهوين على النبي ﷺ؛ أي: لا تحزن من إعراضهم، فقد بلغت الرسالة. وعليه؛ فالأمر بالتّوليّ كناية عن تسليمهم لله، وتركهم لمصير الهلاك.

متاركة المعاندين
تفريع على
موقفهم
وإفصاح عن
واقعهم

من أعرض عن
الحقّ وكُل إلى
عاقبة اختياره

(1) أبو حيّان، البحر للحيط: 35/10، وابن عاشور، التّحريض والتّنوير: 176/27.

(2) الخطيب، وآخرون، التّفصيل في الإعراب: 139/27.

(3) الرّمخسريّ، الكشّاف: 4/432، والطّبيّ، فتوح الغيب: 15/121.

تعيين المقصود بالخطاب ودلالته:

المخاطب في الأمر ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ هو النبي ﷺ ، ودل الخطاب على تسليته ﷺ وتبتيته؛ ليعلم أنه أدى ما عليه، ولم يقصر في التبليغ، كما أنه دل بالإيماء إلى تأنيب الكفار، إذ وجه الكلام للنبي تسلياً، ولأعدائه توبيخاً؛ فدل الخطاب على تسليته النبي ﷺ صراحةً، وعلى توبيخ الكافرين إيماءً.

بلاغة استعمال حرف (عن):

عُدِّي فعل التولي بحرف (عن) في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ لإفادة المجاوزة والانصراف الكلّي؛ أي: اجعل بينك وبينهم حجاباً، واصرف وجهك عنهم تماماً، وفيه مبالغة في الإعراض، لما فيه من الإيماء إلى معنى الإهمال والإغفال، ووضع المتولّى عنهم موضع المغفول عنه، غير مُستحقّ الالتفات، تنبيهاً إلى أنهم لا يستحقّون أدنى التفاتٍ، كما فيه إيماء إلى معنى الإعراض؛ أي: تولّى معرضاً عنهم.

نكتة الوقف على ﴿عَنْهُمْ﴾:

حسن الوقف على الجار والمجرور ﴿عَنْهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ لنكتة بيانية، وهي إفهام معنى القطع التام، وهو الإخبار بانتهاء تبليغهم وإنذارهم، وتركهم وما هم عليه من العناد، وتوطئة للاستئناف: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾، كأن ذلك الجزاء هو عاقبة توليهم. وإذا وصل الكلام ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ أصبح المعنى تأجيل العقوبة إلى ذلك اليوم. وهذا ضعيف؛ لأنّ توليهم عنهم ليس مغيّاً بيوم يدع الداعي⁽¹⁾، ولإفهام الوصل أنّ التولية مأمور بها يوم النّفخ في الصور، فيُظنّ أنّ العامل في الظرف هو (تول)،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 8 / 174.

اجتماع الدلالة
الظاهرة
والإيمائية إيجاز
قصر

التولي عن
المعاندين
إعراض مستحق
وإغفال حقيق
بهم

انتهاء التبليغ
أشدّ إنذار
واجهه المشركون
لو كانوا يفقهون

كأنه قيل: فتولّ يوم يدع الداعي. وهو ضعيفٌ جداً لبعده⁽¹⁾. أمّا الوقفُ على ﴿عَنْهُمْ﴾ فيفصل الأمر بالإعراض عنهم عن مشهد القيامة.

موقع الظرف بناءً على الوقف والوصل:

بناءً على الوصل في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ - وهو وجه ضعيف - يكون ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ زمان متعلقاً بفعل (تولّ)؛ أي: أعرض عنهم إلى يوم القيامة، وعلى الوقف يكون ﴿يَوْمَ﴾ منصوباً بفعلٍ محذوف، تقديره: اذكر يوم يدعو الداع⁽²⁾، ففي الوقف تصويرٌ مشهديٍّ مستقلٍّ ليوم القيامة أشدّ تهديداً وأوقع في النفس.

بلادة الاستئناف البياني:

فصل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ﴾؛ لأنه استئنافٌ بياني؛ لأن الأمر بالتولّي مؤذنٌ بغضبٍ ووعيدٍ، فمن شأنه أن يُثير في نفس السامع تساؤلاً عن مجمل هذا الوعيد، ووقع الاستئناف معترضاً بين جملة ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ﴾ وجملة ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾. وإذ قد كان المتوعدُّ به شيئاً يحصل يوم القيامة، قدّم الظرف على عامله - وهو قوله: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمَ عِيسَى﴾؛ ليحصل بتقديمه إجمالٌ يفصله بعض التفصيل ما يُذكر بعده، فإذا سمع السامع هذا الظرف، علّم أنه ظرفٌ لأحوالٍ تُذكر بعده، هي تفصيلٌ ما أجمله قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ من الوعيد، بحيث لا يحسن وقع شيءٍ ممّا في هذه الجملة هذا الموقّع غير هذا الظرف، ولولا تقديمه لجاء الكلام غير موثوق العرى، وانظر كيف جمّع فيما بعد قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ كثيراً من الأحوال، أخذ بعضها بحجزٍ بعضٍ بحسن اتصال، ينقل كلٌّ منها ذهن السامع إلى الذي بعده، من غير شعورٍ بأنه يُعدّد له أشياء⁽³⁾.

التذكير بوعيد
القيامة بين يدي
الإعراض عن
المعرضين

الوعيد المرتقب
يتجلى يوم
يُدعى إلى أمرٍ
نكبر

(1) أبو حيّان، البحر للحيط: 8/ 174، والسّمين، الدّرّ للصّون: 6/ 222.

(2) الرّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 182، والخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 140.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 177.

دلالة التعبير بالفعل المضارع:

التعبير بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَدْعُ الدَّاعِ﴾ يفيد استحضار الصورة المستقبلية؛ لتقريب مشهد الداعي حين يُنادي الناس.

نكتة حذف واو ﴿يَدْعُ﴾:

لفظ ﴿يَدْعُ﴾ رُسِمَ في المصحف بغير واو؛ اتِّباعاً لقراءة الوصل بسبب التقاء الساكنين، ولفظ ﴿الدَّاعِ﴾ رُسِمَ في المصحف بغير ياء للتخفيف⁽¹⁾. والحذف فيهما ليس لمجرد التقاء الساكنين والتخفيف فحسب، بل له إحياء بياني أيضاً، ففيه إيجاز صوتي يُضاهي رهبة المشهد وسرعة النداء، كما أنَّ الحِقة والقطع في اللفظ تعكس نفاذ الدعوة وقطعها لعالم الدنيا، إيداناً بالانتقال إلى هول القيامة. فالرسم والقراءة اجتماعاً على التخفيف صوتاً، وأدباً معنى الرهبة والسُرعة دلالةً.

معنى تعريف لفظ ﴿الدَّاعِ﴾:

تحتمل (أل) في لفظ ﴿الدَّاعِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ معنيين؛ العهد الذهني، أي: الداعي المعلوم عندكم، وهو إسرافيل - على قول - الموكل بالنفخ في الصور والدعاء إلى المحشر⁽²⁾. ولا يبعد أن تكون (أل) لتعريف الماهية؛ أي: الداعي المهيب في ذلك اليوم العظيم، فلا يحتاج إلى تعريف آخر؛ لأنه لا يلتبس بغيره.

بلاغة جناس الاشتقاق:

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ جناس الاشتقاق، وهو أن يأتي في الكلام لفظان، بينهما اتفاق في المادة الأصلية (الجذر) واختلاف في الصيغة؛ فقولُه: ﴿يَدْعُ﴾ فعل، وقولُه: ﴿الدَّاعِ﴾ اسم، وكلاهما من

(1) القنوجي، فتح البيان: 290/13، وصافي، الجدول: 66/14.

(2) القنوجي، فتح البيان: 290/13.

استحضار
الصورة
المستقبلية؛
وتقريب مشهد
الداعي

الحذف الصوتي
يُجسِّدُ رهبة
النداء وسرعة
وقوعه

الداعي على
الحقيقة هو
داعي يوم
القيامة

جناس
الاشتقاق يجمع
بين الفعل
والفاعل لتأكيد
المعنى والدلالة

جذر (د ع و)، واختلفا في الصيغة، وهو جناس اشتقاق؛ لأنه ليس تكراراً محضاً، ولا اختلافاً تاماً، بل اشتراكاً في الأصل اللغوي مع اختلاف البنية، فيجتمع فيه التلازم الدلالي، والجرس البياني.

بلغة المجاز بالحذف:

حُذِفَ مفعول «يَدْعُ»، والتقدير: (يدعوهم الداعي)؛ لدلالة ضمير «عَنْهُمْ» على تقدير المحذوف في قوله تعالى: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ»⁽¹⁾، وفائدة الإيجاز بحذف المفعول الإسهام في تعظيم الهول؛ ليلقي في نفس السامع شعوراً بالمفاجأة والرّهبة، وتكثيف دلالة المتعلق «إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ». فكأنك أمام مشهدٍ يسمعه السامع، فيبادر بالسؤال: (وما الذي يدعى إليه) ؟ فيأتي الجواب مبهمًا مروّعا: «إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ»!

بلغة استعمال لفظ «شَيْءٍ»:

آثر النظم الكريم استعمال لفظ «شَيْءٍ» نكرة في قوله تعالى: «يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكْرٍ»؛ للدلالة على الإبهام المضزع؛ فالتنكير هنا هو إبهام يُراد به التهويل؛ لأنّ النفس إذا واجهت المجهول خافت منه أكثر ممّا لو عُيِّنَ، فكلّمة «شَيْءٍ» مبهمّة تدلّ على أمرٍ غامضٍ، مُفاجئٍ غير مُعتادٍ، يُستشعر فيه الهول قبل أن يُكشف النقاب عن حقيقته، كما أنّ التنكير أفاد التعظيم في سياق التهديد والوعيد؛ أي: يدع الدّاع إلى أمرٍ عظيمٍ لا يوصف، تُفرّغ له القلوب، وتُتكرّر الفطر⁽²⁾.

بلغة استعمال مفردة «نُكْرٍ» وصفاً:

كلّمة «نُكْرٍ» في قوله: «شَيْءٍ نُكْرٍ» وصّفُ مبالغة لاسم المفعول، فهو شديد النكارة⁽³⁾؛ أي: أمرٌ تُتكرّر النفوس، وتَمَجّجُه

تهويلٌ موقِفِ
القيامة وتَعْظِيمِ
مآلِ المُجْرِمِينَ

إبهام الدّعْوِ إليه
يورث الرّهبة،
ويُعزّز التهديد

وصفُ الشّيءِ
بالنكارة يُجسّم
الفرع، ويبلغ
بالهول غايته

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27 / 177.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27 / 177.

(3) فاضل السامرائي، معاني النحو، ص: 59، 60.

العقول، وتهربُ منه الفطرُ السليمةُ، فهو غير مألوف، لا يقبله عقلٌ، ولا تصبرُ عليه نفسٌ⁽¹⁾. أو هو صفة مشبهة فيدلُّ اللفظُ على تشبُّع ﴿شَيْءٍ﴾ بالصفة، فقوله: ﴿شَيْءٍ نُكْرٍ﴾؛ أي: دائم النكارة ومُتشبِّعٌ بها إلى أبعد حدٍّ⁽²⁾، وهذا الوصف يُتِمُّ مشهدَ الهول في السياق، ودلالة تكثير الموصوف قبله، فالجمعُ بين الإبهام والوصف يُجسِّمُ الهول؛ كأنَّهم يُستقبلون في يوم القيامة بنداٍ مُروِّع، إلى أمر مجهول، لكنَّه مشهودُ الفظاعة والغرابة، تفرَّعُ له الروحُ قبل أن تراه⁽³⁾! فالنَّعْبِيرُ جَمَعَ بين أصل المعنى (الاستقباح)، وصيغة المبالغة (الهول العظيم)؛ ليُصوِّرَ الحدَثَ يومَ القيامة بأنَّه شيءٌ فظيغٌ مُنْكَرٌ، تستعظمُه العقولُ وتستفظعُه القلوبُ.

توجيه القراءات القرآنية:

قرأ الجمهور ﴿نُكْرٍ﴾، وقرأ ابن كثير ﴿نُكْرٍ﴾ على وزن (فُعْل) بضمِّ الفاء وسكونِ العين⁽⁴⁾، وهي وصفٌ يُفِيدُ المبالغةَ أيضاً؛ أي: شيءٌ منكَورٌ مُبَالِغٌ في إنكاره لشِدَّتِهِ وفضاعته. والفرق بين قراءة ضَمِّ الكاف وسكونها: أَنَّ الضَّمَّ فيه مبالغةٌ من جهة الصَّيْغَةِ؛ أي: أَنَّ الوصفَ نفسه بلغَ غايته. وقراءة السَّكُونِ فيه إيجازٌ وقوَّةٌ من جهة الوقع، يوحي بأنَّ الشَّيْءَ بذاته بالغٌ في النكارة بحيث لا يحتاج إلى زيادة، فكلَّهما يلتقي في معنى الشِدَّةِ والفضاعة، لكنَّ الضَّمَّ أبلغُ في الوصف الكيفيِّ، والتَّسْكِينُ أوجزُ وأشدُّ وقعاً في النَّفْسِ.

بلاغة استعمال مفردة ﴿خُشَّعًا﴾:

آثر النظمُ الكريم استعمالَ كلمة ﴿خُشَّعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَرُهُمْ﴾؛ لدلالاتها على التَّذَلُّلِ والانكسار والخضوع،

امتداد الصوت
بالضَّمِّ يناسب
تفصيل الصَّفة
وبيانها

مَنْ لَمْ يَخْشَعْ
فِي الدُّنْيَا اخْتِيَارًا
فسيخْشَعُ فِي
الْقِيَامَةِ إِجْبَارًا

(1) الزَّمَخْشَرِيُّ، الكَشَاف: 4/ 432.

(2) السَّامِرِيُّ، معاني الأبنية، ص: 65، وصافي، الجدول: 14/ 66.

(3) ابن عاشور، التَّحْرِيزُ والتَّنْوِيرُ: 27/ 177.

(4) ابن الجزري، التَّشْرُحُ: 2/ 380.

وهو ما يُناسب مَوْقِفَ المُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ومن حَيْثُ الصَّيْغَةُ فهي جَمْعُ خَاشِعٍ، وهو اسْمٌ فاعِلٌ صُيِّرَ إلى جمعٍ تكسيرٍ؛ للدلالة على الكثرة وتعدد الأفراد، وهي وصفٌ لحال الذين يخرجون من قبورهم أَذَلَّةً مُنْكَسِرَةً أَبْصَارُهُمْ⁽¹⁾. وَنُكَّتْ استعمال هذه المفردة دون مُقارباتها: هو التّعريض بمدح المؤمنين الذين كانوا خُشَعًا لله تعالى في الدُّنْيَا، وبيانٌ أَنَّ مَنْ لم يَخْشَعْ في الدُّنْيَا اختيَارًا، فسيخْشع يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَهْرًا وإِجْبَارًا.

توجيه القراءات القرآنية:

قرأ البصريان وحمزة والكسائي وخلف: ﴿خَشِعًا﴾، وقرأ البقية: ﴿خُشَعًا﴾⁽²⁾، فقراءةُ الأفراد ﴿خَشِعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ تُصَوِّرُ الخُشُوعَ صفةً شاملةً مُطلقةً، قد استولت على كلِّ بَصَرٍ فردًا فردًا، فيُرى الذَّلُّ واحدًا مُتَحَقِّقًا في كلِّ عينٍ على حِدَةٍ، ممَّا يُبْرِزُ شمولَ الأثرِ وتساوي النَّاسِ فيه⁽³⁾، وقراءةُ الجمعِ ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ تُصَوِّرُ تفرُّقَ المظاهر وتوزُّعها على الأبصار، فيوحي بكثرة العيون الخاشعة، وهولِ المَشْهَدِ بكثرة الدَّلَّةِ الظَّاهِرة على كلِّ الجماعات، فيكون أوقع في تصوير تراكمِ الخَوْفِ والذَّلِّ الجماعي، فالأفراد يُرَكِّزُ على شمولِ الخُشُوعِ في كلِّ فردٍ، والجمعُ يُرَكِّزُ على كثرة الخاشعين وفضاعةِ المَشْهَدِ الجماعي.

بلاغة الكناية في ذكر الأبصار:

إِسناد الخُشُوعِ إلى الأبصار في قوله: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ؛ لأنَّ الخُشُوعَ والذَّلَّ والانكسارَ هو في الأنفُسِ حَقِيقَةٌ لا في الأبصار، ولذا أجازوا أن يكون ﴿أَبْصَرُهُمْ﴾ بدلًا مِنَ الصِّمِيرِ في

تصوير الخُشُوعِ في كلِّ فردٍ تفصيلاً، وفي المجموع جُملةً

ذَلَّةُ الذَّلِيلِ وَعِزَّةُ الْعَزِيزِ تَظْهَرَانِ في عيونهما

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خشع)، والقنوجي، فتح البيان: 290 / 13، والسامرائي، معاني الأنبياء،

ص: 133، والخطيب وآخرون، التَّفْصِيل: 142 / 27.

(2) ابن الجزري، النَّشْر: 380 / 2.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 100 / 19.

﴿حُشَعًا﴾؛ لأنَّ التَّقدير: (خَشَعًا هم)؛ أي: أنفسهم وذواتهم⁽¹⁾. وإنما أضاف الخشوع إلى الأبصار؛ لأنَّ العِزَّ والذُّلَّ يَتَبَيَّنُ فيها، ويظهر أكثر من ظهوره على بَقِيَّةِ البدنِ، فالأبصارُ كاشفةٌ لما في النَّفوسِ⁽²⁾، فقولُه تعالى: ﴿حُشَعًا أَبْصَرُهُمْ﴾ كنايةٌ عن صفة الذُّلَّةِ والانخِذالِ؛ لأنَّ ذلَّةَ الدَّلِيلِ وعِزَّةَ العِزِيزِ تظهَران في عيونهما⁽³⁾.

نُكْتَةُ التَّعبِيرِ بصيغة المضارع:

آثر النِّظْمُ الكريم التَّعبيرَ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾؛ لتصوير حال الخارجين من قبورهم؛ فناسبَ التَّعبيرُ بالمضارع لإبراز المَشْهَدَ المُفاجئِ المُتتابعِ.

نوع ﴿مَنْ﴾ ودلالاتها:

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾؛ لابتداء الغاية المكانية؛ أي: مبدأ خروجهم وانبعاثهم يكون من داخل القبور.

بلاغة استعمال مفردة ﴿الْأَجْدَاثِ﴾:

آثر النِّظْمُ الكريم استعمالَ مفردةِ ﴿الْأَجْدَاثِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ دون (القبور)؛ وذلك لأنَّ الأجداثَ مُرتبطةٌ بمعنى الجدث، وهو صوت الحافرِ والخَفِّ وأكلِ اللَّحْمِ، وهذه الأصوات الثلاثة ستكون حاضرةً وقتَ خروجِ النَّاسِ من قبورهم، فتنمو اللَّحُومُ على الأجساد، ثُمَّ يَحْفَرُونَ لِيَخْرُجُوا، فَصَوْتُ الْحَفْرِ وَنُمُو اللَّحْمِ هو الحاضر بقوة في مَشْهَدِ القيامة، وهو الذي بسببه سُمِّيَ القبرُ جَدَثًا، فَإِنَّ تَأْكُلَ اللَّحُومُ ابتداءً واضمحلالها هو سببُ تسميةِ القبرِ بالجدث، فكذلك القبر عند نُمُوها، وَيُرْشَحُ ذلك أَنَّ الآياتِ التي ورد فيها لفظُ الجَدَثِ تصوِّرُ وقتَ خروجِ الأجساد من قُبُورها.

تصويرُ حال
الخارجين من
قبورهم في
مشهد مفاجئ
متتابع

مبدأ الخروج
والانبعاث يكون
من داخل القبور

الأجداث تختص
بصوتٍ دالٍّ على
خروج النَّاسِ
من قبورهم

(1) الخطيب وآخرون، التفصيل في الإعراب: 143 / 27.

(2) القنوجي، فتح البيان: 290 / 13.

(3) الزمخشري، الكشاف: 432 / 4.

نوع (أل) في لفظ ﴿الْأَجْدَاثِ﴾:

عُرِفَ لفظُ ﴿الْأَجْدَاثِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾، بجعل (أل) عوضاً عن المضاف إليه المحذوف؛ أي: من أجداثهم؛ لأنَّ السِّياقَ فيهم، ويحتمل أن يكون تعريفَ الجنس؛ أي: القبور على وجه العموم، لا قبوراً مخصوصة. والإتيان بـ (أل) الجنسية يُشعرُ بأنَّ هذا المشهدَ عامٌّ شاملٌ لكلِّ القبورِ في الدنيا، فيُبرزُ شموليّةَ البعث، وأنَّه لا يختصُّ بقوم دون قوم، ولا بمكانٍ دون مكان، ودلالةُ الجنس صحيحةٌ باعتبارِ عمومِ الحدث، لا باعتبارِ خصوص السِّياق، ولذلك الأولى أن تكون (أل) عوضاً عن المضاف إليه المحذوف.

بلادة التشبيه ونوعه:

في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ تشبيهٌ مُرسلٌ مُفصلٌ: حيثُ شَبَّهَهم بالجرادِ المنتشرِ، في الكثرة والتموُّج والانتشار في الأقطار، بجامعِ الكثرة، وعدم الاستقرار، والانتشار في الأقطار، كما جاء تشبيهُهم بالفراشِ المَبثوثِ. وقد قيل: يكونون أولاً كالفرّاش حين يَموجون اضطراباً وفزعاً، لا يهتدون أين يتوجَّهون؛ لأنَّ الفرّاش لا جهةَ لها تَقصِّدُها، ثمَّ هم كالجرادِ المنتشرِ إذا توجَّهوا إلى المَحشر، فهما تشبيهان باعتبار وقتين⁽¹⁾. والتشبيه هنا مُرسلٌ؛ لذكر الأداة، ومُفصلٌ؛ لذكر وجه الشَّبه، وهو الانتشار، فكأنَّه قال: خروجهم من قبورهم كالجراد في انتشاره. كما أنَّ هذا التشبيه مُركَّبٌ، فهو تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ لأنَّه تشبيهٌ هيئةٍ خروج النَّاسِ مِنَ القبورِ مُتراكمين، بهيئةِ خُروجِ الجرادِ مُتعاظلاً - يركب بعضُه بعضاً كما السِّفاد - يسير غير ساكن⁽²⁾، وقد أفاد هذا التشبيه تجسيدَ الصَّورةِ وتشخيصَها؛ فهذه الجموعُ الخارجة من الأجداث

ما وافق
خصوص
السِّياقِ فهو
المُقَدَّم على
عموم الواقع

انتشار الجراد
صورة مُركَّبة
تجمُّع التَّكاثُفِ
والانتشار
والإزدحام

(1) الألوسي، روح المعاني: 14/ 80، وصافي، الجدول: 14/ 67.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/ 179.

في مثل رَجَعِ الطَّرْفِ تُشَبِّهُ الْجَرَادَ الَّذِي اشتهر بانتشاره واحتشاده دون أن يكون له هدفٌ من هذا الانتشار والاحتشاد، وكذلك هذه الجموعُ قد أَلْجَمَهَا الخوفُ، وَعَقَدَ الهولُ أَفْهَامَهَا، وضربَ عليها رواكدَ مِنَ الحيرة، وغشَّيَهَا بِأَمْوَاجٍ مِنَ الضَّلالة والرَّين، فهي تسير تلبيةً لدعوة الدَّاعِ دونَ أن تعرفَ لِمَ يَدْعُوهَا، ولكنها تعرف بصورة مُبْهَمَةٍ أَنَّهُ يَدْعُوهَا إلى شيءٍ نُكِرٍ لَا تَكْتَنِيهِ حَقِيقَتُهُ، وَلَا تَعْرِفُ فُجْوَاهُ⁽¹⁾.

غرض تنكير لفظ ﴿جَرَادٌ﴾:

صورة الجراد
المُشَبَّهِ به
تقريبية لا
تحقيقية

نُكِرَ لفظُ ﴿جَرَادٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ للتَّعْظِيمِ والتَّهْوِيلِ وإظهار المفارقة، فالتَّنْكِيرُ يُشْعِرُ بَأَنَّهُمْ لَيْسُوا كَأَيِّ جَرَادٍ مَعْهُودٍ، بَلْ جَرَادٌ عَجِيبٌ مُرْعِبٌ فِي كَثْرَتِهِ واضطرابه وانتشاره، فيجعلُ صورةَ البعثِ أَفْظَعَ وَأَقْوَى. ولو قال بالتَّعْرِيفِ: (كَالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ)؛ لأَفَادَ التَّشْبِيهَ تَشْبِيهَ الْخَارِجِينَ مِنَ الْقُبُورِ بِجَرَادٍ مَعْرُوفٍ مألُوفٍ عِنْدَ النَّاسِ فِي حَيَاتِهِمْ، فيقتصرُ على المُشَابَهَةِ مِنْ حَيْثُ الْهَيْئَةُ الطَّبِيعِيَّةُ لِلْجَرَادِ إِذَا انْتَشَرَ، أَمَّا التَّنْكِيرُ فَيَدُلُّ عَلَى انْقِطَاعِ النَّظِيرِ فِي شِدَّةِ الْكَثْرَةِ والفوضى والانتشار⁽²⁾.

علَّة التشبيه بالجراد المنتشر:

بيان الانتشار
غير النظم
كغوغاء الجراد
لتصوير هول
الموقف

آثر النظم الكريم تشبيهَ الْخَارِجِينَ مِنَ الْقُبُورِ بِالْجَرَادِ الْمُنْتَشِرِ فِي قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾؛ لِبَيَانِ صورة الانتشار فهو ليس انتشارًا على وجه المَهْلِ والوقار، بَلْ انْتِشَارٌ غَوْغَائِيٌّ كَانْتِشَارِ الْجَرَادِ، زِيَادَةً فِي هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَتَقْرِيرًا لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ وَصْفِهِ⁽³⁾. والانتشار هنا هو وَجْهُ الشَّبهِ، وَالتَّصْرِيحُ بِهِ أَكَّدَ فِي الْأَذْهَانِ أَنَّ التَّشْبِيهَ حَاصِلٌ فِي الْكَثْرَةِ وَزَحْمَةِ الْاِخْتِلَاطِ، لَا فِي

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 375 / 9.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 101 / 19.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 101 / 19.

صَغَرَ الْجُثَثِ وَالذَّوَاتِ. فهِم كَالْجَرَادِ فِي كَثْرَتِهِ وَزَحْمَتِهِ فِي انْتِشَارِهِ،
لَا فِي صَغَرِ جَرِمِهِ وَحَجْمِهِ.

بلادة استعمال مفردة ﴿مُهْطِعِينَ﴾:

آثر النّظم الكريم استعمال مفردة ﴿مُهْطِعِينَ﴾؛ لدلالاتها على أمرين معاً، وهما الإقبال على الشّيء بالبصر مع الانقياد، ولا يكون ذلك إلا مع خوفٍ، والإسراع في العدو مع مدّ العُنُقِ بانقيادٍ⁽¹⁾، فالمفردة تصوّر حال المهطع بأنّه مذعورٌ مُنقادٌ مُسرّعٌ مادُّ عنقه، شاخصٌ بصره، فهي تصوّر حال الذّعر والهلع والغموض الذي يعيشه الإنسان حال خروجه من القبر، دون أن يكون هناك التفاتٌ لشيءٍ سوى أن ينظرَ أمامه بشخص البصر ومدّ العنق.

معنى تعريف لفظ ﴿الدَّاعِ﴾:

تعريف لفظ ﴿الدَّاعِ﴾ للعهد الذّكري؛ أي: المعهود المعلوم الذي ذُكر سابقاً في قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾، وهو الملك الذي ينفخ في الصّور أو ينادي بالبعث⁽²⁾.

فائدة إظهار لفظ ﴿الدَّاعِ﴾:

آثر النّظم الكريم إظهارَ لفظِ ﴿الدَّاعِ﴾؛ لدفع توهّم الله تعالى، فإنّه لو أُضْمِرَ لاحتمل السّياقُ ﴿الدَّاعِ﴾ ولفظُ الجلالة، وتعيينه يدلُّ على أنّهم ما زالوا في إبهامٍ من المشهد، وضياحٍ في الموقِف، فلو قال: (مُهْطِعِينَ إليه) لاحتمل إرادة الإهطاع إلى الله تعالى، وهذا الاحتمال يُعَيِّبُ إرادة تصوير المشهد بامتداداته التي تدلُّ على أنّ النّاسَ حين الخروج في حال خوفٍ وهلعٍ مُبْهِمٍ، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ

تصوير حال
الهلع الشديد
بمدّ الأعناق
وشخص
الأبصار

المعهود المذكور
الذي ينادي
بالبعث

دفع توهّم
الاحتمال
وتصوير مشهد
الخروج بأدقّ
تفاصيله

(1) الجوهرى، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن الأثير، النهاية: (هطع).

(2) القنوجي، فتح البيان: 290 / 13.

﴿٥١﴾ قَالُوا يَوِّدُنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ

الرُّسُلُونَ ﴿٥٢﴾ [يس: 51 - 52] .

علة فضل جملة «يَقُولُ الْكَافِرُونَ»:

فُصِّلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ» عَمَّا قَبْلَهُ؛ لِكَوْنِهِ فِي مَوْقِعِ الِاسْتِنَافِ الْبَيَانِيِّ، فَالْجُمْلَةُ فِي مَوْقِعِ الْجَوَابِ عَمَّا نَشَأَ قَبْلَهَا مِنْ وَصْفِ الْيَوْمِ وَالْأَهْوَالِ وَأَهْلِهِ بِسُوءِ الْحَالِ فِي قَوْلِهِ: «خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ»، كَأَنَّهُ قِيلَ: فَمَاذَا يَكُونُ حِينَئِذٍ؟^(١) وَمَاذَا يَصْدُرُ عَنِ الْكَافِرِينَ مِنْ مَوَاقِفَ وَأَقْوَالٍ، فَأُجِيبَ: «يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ»، وَالِاسْتِنَافُ الْبَيَانِيُّ مِنْ دَوَاعِي الْفَصْلِ، وَهُوَ شَبَهُ كِمَالِ الْإِتِّصَالِ.

بلاغة إظهار الفاعل دون إضماره:

آثَرُ النَّظْمِ الْكَرِيمِ ذِكْرُ الْفَاعِلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ» مُظْهِرًا بِلَفْظِ: «الْكَافِرُونَ»، دُونَ إِضْمَارِهِ بِأَنْ يُقَالَ: (يَقُولُونَ)؛ لِيَعُودَ عَلَى الضَّمِيرِ (هَمْ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ»؛ لِلتَّخْصِصِ وَالتَّنْصِيسِ عَلَى الْكَافِرِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ، بِأَنَّ الْعُسْرَ مَشْهُودٌ مِنَ الْكَافِرِينَ فَقَطْ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَا عُسْرَ عَلَيْهِمْ، بَلْ أَمَانٌ وَيُسْرٌ فِي مَبْعَدَةِ عَنِ الْفَزَعِ وَالْحَزَنِ^(٢)، وَلَوْ قَالَ: (يَقُولُونَ) لَاحْتَمَلَ الْعُمُومَ، وَلِإِظْهَارِ سَبَبِ الْعُسْرِ؛ أَيِ: بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَقِسْوَةِ قُلُوبِهِمْ، وَقُبْحِ أَعْمَالِهِمْ، أَحْسَوْا بِهَذَا الْيَوْمِ عَسِيرًا، فِي حِينٍ لَا يُحِسُّ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ كَذَلِكَ.

نكتة التعبير باسم الإشارة القريب:

آثَرُ النَّظْمِ الْكَرِيمِ اسْتِعْمَالُ اسْمِ الْإِشَارَةِ الْقَرِيبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ»؛ لِتَعْرِيفِ مَا يَكُونُ فِي الْيَوْمِ، فَهَمْ لَا يَمْتَلِكُونَ أَدَوَاتٍ

(١) أَبُو الشَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 168 / 8.

(٢) الْأَلُوسِيُّ، رُوحُ اللَّعَانِي: 80 / 14.

الاستئناف
البياني تجاوب
مع التلقي
وتحريك
إكِّنونات الفكر

عُسْرُ الْقِيَامَةِ
مُخْتَصَّ
بِالْكَافِرِينَ
بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ

إِصْصَالُ الْمَعْنَى
بِصِيغَةِ حَسِّيَّةٍ
وَاضِحَةٍ بِطَرِيقِ
الِإِشَارَةِ

مَعْرِفِيَّةً لِبَيَانِ الْمَقْصُودِ بِهَذَا الْيَوْمِ، إِلَّا أَنَّهُ يَوْمٌ عَسِرٌ، فَأَشَارُوا إِلَيْهِ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ الْقَرِيبِ؛ لِلتَّعْرِيفِ بِمَا اسْتَكَنَّ فِي نَفُوسِهِمْ تَجَاهَهُ، وَلِإِضْفَاءِ الْوُضُوحِ الْحَسَنِيِّ عَلَى شِدَّتِهِمْ فِي هَذَا الْيَوْمِ، فَالْإِشَارَةُ بِالْقَرِيبِ تَجَلِّي الْمَرَادِ وَتُجَرِّدُهُ مِنَ الْإِبْهَامِ، فَلَا يَكْتَفُهُ الْغَمُوضُ، أَوْ شَيْءٌ مِنْ شَوَائِبِ الْإِلْبَاسِ وَالتَّشْوِشِ، كَمَا أَنَّهَا تُؤَكِّدُ الْمَعْنَى الْمُسَاحَبَ لِلْمُشَارِ إِلَيْهِ بِتَشْخِصِهِ وَتَقْرِيبِهِ الْمَكَانِي وَالزَّمَانِي.

غرض تنكير لفظ «يَوْمٌ»:

نَكَّرَ لَفْظُ «يَوْمٌ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ»؛ لِإِفَادَةِ التَّهْوِيلِ، فَكَلَامُ الْكَافِرِينَ يَعْكِسُ هَوْلَ مَا رَأَوْهُ، خَاصَّةً وَأَنَّهُمْ وَصَفُوهُ بِأَنَّهُ عَسِرٌ.

تهويل يوم
القيامة على
الكافرين

فائدة وصف اليوم بأنه «عَسِرٌ»:

وَصَفَ الْيَوْمَ بِـ «عَسِرٌ» فِي قَوْلِهِ: «هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ» يَنْفِي عَنِ الظَّرْفِ أَيِّ إِبْهَامٍ أَوْ غَمُوضٍ، كَمَا يَعْنِي حَقِيقَةُ الْيَوْمِ، وَيُثَبِّتُ شِدَّتَهُ بِوَضُوحٍ⁽¹⁾.

يومٌ عسيرٌ على
الكافرين غيرٌ
يسير

بلادة استعمال مفردة «عَسِرٌ» مادةً وصيغةً:

التَّعْبِيرُ بِالْعُسْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ»؛ لِإِظْهَارِ شِدَّةِ الْيَوْمِ وَصَعُوبَتِهِ، وَإِخْلَاطِهِ مِنْ مَظَاهِرِ الْيُسْرِ وَالرَّاحَةِ فِي طِبَائِعِ أَحْدَاثِهِ⁽²⁾، وَهُوَ وَصْفٌ لِمَا يَسْتَشْعُرُهُ وَيَرَاهُ الْكَافِرُونَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَهُوَ مَا يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَا يُجْرِيهِ عَلَى أَبْصَارِهِمْ مِنْ رُؤْيَا أَهْوَالٍ تَقُودُهُمْ إِلَى مِثْلِ هَذَا الْوَصْفِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: «فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى»⁽³⁾ [الْبَلَد: 10]، وَقَدْ جَاءَ عَلَى وَزَانِ الصِّفَةِ الْمَشَبَّهَةِ (فَعِلٌ)؛ وَهِيَ صِيغَةُ تَصْفٍ ثَبُوتِ الصِّفَةِ فِي الْمَوْصُوفِ؛ أَيُّ: هُوَ يَوْمٌ ثَابِتٌ الْعُسْرُ لَا يَزُولُ وَقَعَ عُسْرُهُ عَنِ الْكَافِرِينَ⁽³⁾.

وَصَفَّ الْيَوْمَ
بِالْعُسْرِ بَيَانًا لِمَا
يراه الكافرون
ويستشعرونه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 101.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عسر).

(3) السامرائي، معاني الأنبياء، ص: 69.

بلاغة المجاز ودلالته:

تصوير ما
يكون في الزمان
بنسبته إليه

وَصَفَ اليومَ بِأَنَّهُ ﴿عَسِرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ مَجَازٌ بَدِيعٌ؛ لِأَنَّ الْعُسَرَ لَيْسَ وَصْفًا حَقِيقِيًّا لِلْيَوْمِ ذَاتِهِ، بَلْ لِمَا يَجْرِي فِيهِ مِنْ أَحْدَاثٍ شَدِيدَةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ⁽¹⁾، كَالْحَشْرِ، وَالْحَسَابِ، وَالتَّدَاءِ، وَالْخَوْفِ، تَمَامًا كَمَا نَقُولُ: هَذَا يَوْمٌ سَعِيدٌ، أَوْ هَذَا يَوْمٌ مَشْوُومٌ، وَالْمَقْصُودُ مَا يُقَارَنُ الْيَوْمَ مِنْ وَقَائِعَ وَأَحْوَالٍ.

❁ الفروق المعجمية:

اقتربت وأزفت:

الأزفُ قربٌ مع
شدةٍ وضيقٍ،
والاقترب اقترابٌ قربٌ
مطلقٌ

الْأَزَفُ: هُوَ قُرْبٌ مَخْصُوصٌ بِحَالِ الضِّيقِ، فَأَزِفَ الْوَقْتُ: دَنَا وَقَرَبَ (فَضَاقَتِ الْفُسْحَةُ الزَّمَنِيَّةُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ حُلُولِهِ). وَمَعْنَى: ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾ [النجم: 57]: قَرَبَتِ الْقِيَامَةُ⁽²⁾، فَهِيَ آزِفَةٌ: لِأَنَّهَا دَائِمًا فِي اقْتِرَابٍ يُضِيقُ الْوَقْتَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا⁽³⁾. وَالْأَزَفُ أَيْضًا: الضِّيقُ وَسُوءُ الْعِيشِ⁽⁴⁾، فَهُوَ ضَيْقٌ حَسِّيٌّ وَضَيْقٌ مَعْنَوِيٌّ نَفْسِيٌّ.

وَأَمَّا الْقُرْبُ: فَهُوَ ضِدُّ الْبُعْدِ، حَسِّيًّا كَانَ أَمْ مَعْنَوِيًّا. وَهُوَ دُنُوشِيٌّ مِنْ شَيْءٍ⁽⁵⁾، وَلَا يَلْزَمُ فِيهِ اقْتِرَانُهُ بِالضِّيقِ أَوْ سُوءِ الْحَالِ أَوْ الشَّدَّةِ. وَلِذَا فَلَفَظُ (أَزَفَ) يُسْتَعْمَلُ فِي سِيَاقِ الشَّدَّةِ وَالضِّيقِ وَالْوَعِيدِ فِي الْقُرْآنِ⁽⁶⁾، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَزِفَتِ الْأَزْفَةُ﴾ [النجم: 57]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَأَنْذَرُهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ﴾ [غافر: 18]، فَهُوَ إِذَا زُيِّدَ قُرْبًا شَدِيدًا يَقْتَرَنُ بِوَعِيدٍ، فَهِيَ ضِيقَةٌ فِي الْوَقْتِ، وَضِيقَةٌ فِي سُوءِ حَالِهَا عَلَى الْكَافِرِينَ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 101/19.

(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 239/2، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 430.

(3) محمد جبل، للعجم الاشتقاقي للؤصل: (أزف).

(4) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (أزف).

(5) الرَّاغِب، المفردات: (قرب).

(6) السمين الحلي، عمدة الحقاظ: (أزف).

الإعراض، والتَّاي، والصَّدود، والبُعْد، والتَّوَلَّى، والانصراف:

الإعراض: هو الانصرافُ عن الشيء بلا مُبالاةٍ، وعدمُ اكتراتٍ بتوليةٍ وجهه وإبداءِ عَرَضِهِ، وهو مأخوذٌ مِنَ العَرَضِ، وهو النَّاحِيَةُ الَّتِي تُقَابِلُ الطَّوْلَ، ومنه العَرَضُ بضمِّ العَيْنِ، وهو النَّاحِيَةُ والجانب العريض في الشيء⁽¹⁾.

والتَّايُّ: هو الصَّرْفُ والإبعاد بقوة، فهو إبعادٌ يشتملُ على مُبالغةٍ وشِدَّةٍ⁽²⁾.

والصَّدود: مِنَ الصَّدِّ وهو المنع، والصَّدُّ: الحاجز المانع بين الشيئين، والصَّدود: الانصرافُ عن الشيء مع حيلولةٍ وتمنُّعٍ، ففيه معنى الابتعاد بفجوةٍ وغلظةٍ⁽³⁾.

والبُعْد: خِلافُ القُرْبِ، وهو جَعْلُ فُسْحَةٍ ومسافةٍ بين الشيء والشيء، فلا يلتقيان، وليس لذلك حَدٌّ محدود، وإنَّما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره، فهو أعمُّ مِنَ التَّايِّ والإعراض والصَّدود، لأنَّه قد لا يكون عن قصدٍ مُجافاةٍ أو تمنُّعٍ أو انصرافٍ وإعراضٍ⁽⁴⁾.

والتَّوَلَّى عن الشيء وإنَّ تضمَّنَ معنى الإعراض عنه، فلا يخلو من معنى القُرْبِ بحالٍ؛ وذلك لأنَّ معنى القُرْبِ أصلٌ في مادَّة اللِّفْظِ، وعليه، فإذا قيل: تَوَلَّى عن كذا، فيكون بمعنى: أعرَضَ عنه وقَرَّبَ إلى غيره، فالتَّوَلَّى بمعنى الإعراض، فيه معنى الانصراف عن جهة، وموالاته جهةٍ أخرى، فليس إعراضاً مَحْضاً إلى غير بديل⁽⁵⁾.

(1) ابن فارس، معاني اللغة، والزَّاعِب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عرض).

(2) ابن فارس، معاني اللغة: (تأى)، والزَّاعِب، المفردات: (تأى)، وابن منظور، لسان العرب: (تأى)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تأى، نأى).

(3) ابن فارس، معاني اللغة: (صد)، والزَّاعِب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صدد).

(4) ابن فارس، معاني اللغة، والزَّاعِب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بعد).

(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ولي).

التَّوَلَّى إعراضٌ
مع إقبالٍ على
آخر

والانصراف عن الشيء: هو التحوّل عنه والرجوع فيه، كما في قوله: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ [الفرقان: 19]؛ أي: لا يقدرّون أن يصرفوا عن أنفسهم العذاب، أو أن يصرفوا عن أنفسهم النار، أو يصرفوا الأمر عن حالة إلى حالة⁽¹⁾.

النَّبَأُ والخبر والحديث:

النَّبَأُ: أصل (نبأ) الانتقال من مكانٍ إلى مكان، وسُمِّيَتِ الأخبارُ المَحْكِيَّةُ بالأنباء؛ لكونها تنتقل من جهةٍ إلى جهة. والنَّبَأُ يُقال في الخبر الذي لا يعلمه المُخْبِر، ولذا يقتصر على الأخبار ذات الفائدة العظيمة؛ لأنّ الإخبار بما لا يعلمه المُخاطَب، يُحدِثُ عنده عِلْمًا لم يكن عنده فيستفيد.

النَّبَأُ هو الخبر
العظيم الذي
له شأن، والخبر
أعمُّ منه

والخبر: هو العلم بحقيقة الشيء، وهو عامٌّ في جميع المعلومات المعلومة بالخبر، وهو أعمُّ من النبأ في نفسه وفي جهته (المُخْبِر)، فقد يكون حقًا وباطلاً، وقد يكون ذا فائدةٍ أو خالٍ منها، وقد يكون المُخْبِر عالمًا بما يُخْبِر به أو غير عالم⁽²⁾.

والأحاديث: هي الأقاويل التي تحدّث بعد أن لم تكن، وكلامٌ يحدّث منه الشيء بعد الشيء. فأصلُ ذلك من الحدوث، وهو النشوء الجديد للشيء قبل أن يكون، ومنه الحديث ضدّ القديم⁽³⁾.

القُبُور والأجداث:

القبر: هو مقرُّ الدفن، ومَوْضِعُ المَوَاراةِ عموماً⁽⁴⁾، وهو مُخْتَصٌّ بحالِ السّتر والغموض⁽⁵⁾، ولذلك جُعِلَ من إكرام الميت قَبْرُهُ، فقال

القُبُور للدّفن،
والأجداث

للبعث

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّاعب، للفردات، وابن منظور، لسان العرب، والشمين الحلبي، عمدة الحقاظ، الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صرف).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزّاعب، للفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي للمؤصل: (خبر، نبأ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والشمين، عمدة الحقاظ: (حدث).

(4) الزّاعب، للفردات: (قبر).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قبر).

تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عيس: 21]؛ أي: جعله ممّن يُقْبَر، ولم يجعله يُلقى للكلاب والطّير والسّباع، فالقبر ممّا أُكْرِمَ به بنو آدم⁽¹⁾. وأمّا الأحداث فهي القبور أيضًا، لكنّها مُقْتَرَنَةٌ بوقت خروج النّاس منها، والجَدَث في كلام العرب هو صوت الحافر والخفّ، وصوت أكل اللحم، فكان ذِكْرُ الأحداث لتصوير حال خروج النّاس من قبورهم، وقد نَمَت على أجسادهم لحومها، ثمّ خرجوا بأظفارهم من قبورهم، فهذا الصّوت هو الجَدَث، وهو نُكْتَةُ التّسميّة، كذلك وقت الموت لما في القبور من تَأْكُل اللحم، ووقت الخروج لما في القبور من صوت نموّ اللحم، والفرق بين الأحداث والقبور يتبيّن فيما يأتي؛ الأوّل: القبور مكان دفن الأجساد، بينما الأحداث مكان بعث الأجساد. الثّاني: القبور مكان ذهاب الأبدان في الأرض، بينما الأحداث مكان عودة الأبدان من الأرض. الثّالث: القبور نهاية الإنسان بعد حياته الدّنيويّة، والأحداث بداية الإنسان قبل حياته الآخرويّة⁽²⁾.

مُهْطِعِينَ وَمُسْرِعِينَ:

الهْطُوعُ إِسْرَاعٌ مَخْصُوصٌ بِمَدِّ الْعُنُقِ، فَهُوَ إِسْرَاعٌ مُقْتَرَنٌ بِإِقْبَالِ الْأَبْصَارِ عَلَى الشَّيْءِ الْمَقْصُودِ. قال الجوهري: "هَطَعَ الرَّجُلُ، إِذَا أَقْبَلَ بِبَصَرِهِ عَلَى الشَّيْءِ لَا يُقْلِعُ عَنْهُ، يَهْطَعُ هُطُوعًا"⁽³⁾. قال ابن عطية: "المُهْطِعُ: الْمُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ نَحْوَ الشَّيْءِ مَعَ هَزٍّ وَرَهَقٍ، وَمَدِّ بَصَرٍ نَحْوَ الْمَقْصِدِ، إِمَّا لَخَوْفٍ أَوْ طَمَعٍ أَوْ نَحْوِهِ"⁽⁴⁾.

وَأَمَّا الْإِسْرَاعُ فَهُوَ ضِدُّ الْبُطْءِ⁽⁵⁾، فَلَيْسَ مُقَيَّدًا وَلَا مَخْصُوصًا بِحَالٍ سِوَاهِ.

الإِهْطَاعُ إِسْرَاعٌ
مُقْتَرَنٌ بِمَدِّ
الْبَصَرِ، وَالْإِسْرَاعُ
أَعْمٌ مِنْهُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قبر).

(2) الثّني محمود، الإيضاح والتّقييد في إعجاز القرآن اللّجيد، ص: 224.

(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هطع).

(4) ابن عطية، للحرز الوجيز: 5/ 213.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطور من الآية 25 إلى سورة الزّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطور من الآية 25 إلى سورة الزّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطور من الآية 25 إلى سورة الزّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"